المكتبة الثقافية
١١٨

أضواء جديدة على الحروب الصليبية

الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

الثقافة والإرشاد القومي
الدار المصرية للتأليف والترجمة

أول أكتوبر ١٩٦٤

المكتبة الثقافية

- أول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة
- تيسر لكل قارئ أن يقيم في بيته مكتبة جامعة تحوى جميع ألوان المعرفة بأقلام أساتذة ومتخصصين وبقرشين لكل كتاب
- تصدر مرتين كل شهر في أوله وفي منتصفه

الكتاب القادم

الأمم المتحدة
وممارسة نظامها

الدكتور سليمان محمود سليمان

١٥ أكتوبر ١٩٦٤

الثمن ٢ قرشاً

دار القلم بالقاهرة

المكتبة الثقافية
١١٨

أضواء جديدة على الحروب الصليبية

الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

الثقافة والإرشاد القومي
الدار المصرية للتأليف والترجمة

أول اكتوبر ١٩٦٤

توزيع

دار القلم

١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة
ت ٥٥٠٣٢ — ٧٧٧٤١
طنطا ميدان الساعة
ت : ٢٥٩٤

المقدمة

إذا كانت إسرائيل قد تمكنت اليوم من اغتصاب بقعة عزيزة على كل عربى من صميم وطننا ؛ فإن هذه ليست التجربة الأولى من نوعها فى تاريخ الأمة العربية . ذلك أنه حدث منذ تسعة قرون تقريبا أن خرجت جموع كثيفة من غرب أوربا أطلقت على نفسها اسم « الصليبيين » واستطاعت أن تقيم لنفسها ملكا فى نفس البقعة من بلاد الشام ؛ ومن هذا المركز المتوسط فى قلب الوطن العربى أخذ الغزاة الغاصبون يعملون على مد نفوذهم وسيطرتهم ؛ تارة إلى أطراف العراق وطورا إلى أطراف مصر وشبه الجزيرة العربية .

والواقع أن الباحث لا يسعه سوى أن يسلم بالتشابه الشديد بين الظروف التى أقام فيها كل من الصليبيين فى نهاية القرن الحادى عشر وإسرائيل فى القرن العشرين دولتهما فى ذلك الجزء الحساس من جسم الأمة العربية . ففى كلتا الحالتين اعتمد المغتصب الدخيل على انقسام العرب وحكامهم فى الشرق الأدنى إلى قوى متنافسة لا يربط بينها رباط الإحساس بالخطر . وفى كلتا الحالتين استطاع العدو المغتصب أن يعتمد على عنصر

الخيانة ، وأن يعثر على بعض الخونة من حكام العرب الذين باعوا أنفسهم وضمائرهم واختاروا أن يسالموا الدخلاء خوفا على عروشهم وسلطانهم . وفى كلتا الحالتين ظهر رد الفعل قويا فى صفوف الأمة العربية ؛ فلم يرض الضمير العربى عن ذلك الوضع ، ولم يجد الرأى العام العربى ملاذا يعصمه من الخطر إلا الوحدة ؛ فارتفع صوت المخلصين ينادى بوحدة الصف ووحدة الهدف لاستخلاص أرض العروبة من مغتصبيها .

ولم تكد تتحقق الوحدة العربية فى القرن الثانى عشر حتى أدرك الصليبيون أن لا مقام لهم فى أرض العروبة ؛ فتحولت مكاسبهم إلى خسائر وانقلبت انتصاراتهم إلى هزائم ؛ حتى انتهى الأمر — فى نهاية القرن الثالث عشر — بطردهم شر طردة من بلاد الشام . وبفضل هذه الوحدة أيضا سيأتى عن قريب — إن شاء الله — اليوم الذى يتمكن فيه العرب من الإطاحة بإسرائيل فى عرض البحر مثلما أطاحوا من قبل بالصليبيين الغربيين . ولن ينفع إسرائيل عندئذ اعتمادها على الغرب ، فقد سبق للصليبيين أن اعتمدوا على جيوش الغرب الأوربى وأمواله وسلاحه فلم يغنهم ذلك شيئا ، ولم يستطيعوا الصمود أمام قوة شعب آمن بالله وبوحدته وبحقه فى حياة حرة كريمة .

ومن هذا يبدو أننا اليوم أشد ما نكون حاجة إلى التأمل فى تاريخ الحركة الصليبية ودراستها لنستفيد من تلك التجربة الكبرى التى مرت بها الأمة العربية منذ بضعة قرون ، ونأخذ منها الدروس والعظات لنواجه أفدح خطر يواجه الأمة العربية، اليوم ، وهو خطر الاستعمار وأذنابه فى الداخل وأعوانه فى الخارج .

وفى هذا البحث الموجز حاولت أن أعرض الحركة الصليبية عرضا مبسطا واضحا وأن ألم بأطراف تلك الحركة وأدوارها ، فضلا عما تخللها من تيارات حضارية واجتماعية واقتصادية .

والله ولى التوفيق ،،

سعيد عبد الفتاح عاشور

كلية الآداب بجامعة القاهرة
جمادى الأولى ١٣٨٣
سبتمبر ١٩٦٤

ماهية الحروب الصليبية

التاريخ ملىء بحركات الهجرة وانتقال الشعوب من مكان إلى آخر . ومن هذه الحركات العديدة ما اتخذ طابعا سلمياً معتدلا ، ومنها ما اتخذ طابع الغزو العنيف الذى يستهدف تشريد أهل البلاد وأصحابها الشرعيين ، وحرمانهم من حقوقهم وأرضهم .

ومهما تتعدد الأسباب الظاهرية لتلك الهجرات ، فإن الاتجاه الحديث يحاول دائماً أن يفسرها فى ضوء العامل الاقتصادى . فتحت تأثير البيئة وقسوتها وتغير أحوالها ، وما قد يعتريها من جفاف وجدب بعد مطر وخصب ؛ هاجر الفينيقيون واليونانيون فى العصور القديمة وانتشروا على سواحل البحر المتوسط وفى جزره ، ونزح الجرمان فى فجر العصور الوسطى من بلادهم حول شواطىء البلطيق إلى جنوب أوربا ؛ واندفع المغول فى القرن الثالث عشر من جوف آسيا نحو الشرق الأدنى وشرق أوربا .

على أنه من المبالغة أن ننسب جميع الهجرات الكبرى

فى التاريخ إلى العامل الاقتصادى وحده ؛ فهناك أمثلة لحركات ضخمة شاركت فى بعثها وتوجيهها عوامل أخرى دينية وفكرية واجتماعية وسياسية ، فضلا عن العوامل الاقتصادية . ومن هذه الحركات الحركة الصليبية . والواقع أنه لا توجد حركة فى تاريخ العصور الوسطى أحق بالدراسة لكشف حقيقتها وإبراز معالمها واضحة خالصة من الأوهام التى علقت بها ، من الحركة الصليبية . هذا فضلا عن أهمية هذه الحركة بالنسبة للشرق العربى والغرب الأوربى ، ثم بالنسبة للعلاقات بين الشرق والغرب جميعاً . ففى الحركة الصليبية التقى الشرق بالغرب ؛ ولم يكن اللقاء حربياً فى ساحة الوغى فحسب بل كان أيضاً لقاء حضارياً بأوسع ما يحتمله هذا التعبير من معان . وفى الحركة الصليبية وقف الإسلام والمسيحية وجهاً لوجه ، لا وقفة الخصمين المتنافسين فحسب بل أيضاً وقفة الأخوين المتعاتبين اللذين يربط بينهما رباط سماوى وثيق . وفى الحركة الصليبية خرج الغرب الأوربى لأول مرة فى التاريخ عن عزلته وجرى وراء أطماعه مستخدما نفس الأساليب التى ما زال يستخدمها حتى اليوم من تهديد وغزو واغتصاب وحصار اقتصادى . . . .

* * *

وكان ذلك قرب نهاية القرن الحادى عشر للميلاد عندما فوجىء المسلمون فى الشرق الأدنى بموجة ضخمة من الغزاة الأوربيين يقتحمون بلاد الشام ويحاولون بسط سيطرتهم على العراق شرقاً ومصر غرباً والحجاز جنوباً ، وبذلك ينتزعون جزءاً هو بمثابة القلب من جسم الأمة العربية .

وقد استند المؤرخون فى الماضى إلى نسبة تلك الحركة إلى الصليب وفسروها فى ضوء العامل الدينى وحده ؛ فقال مؤرخو الغرب إن الحروب الصليبية حروب دينية مقدسة ، قام بها أناس غلب عليهم شعور التقوى والورع والإخلاص لدينهم وكنيستهم ؛ فرغبوا فى استخلاص الأماكن المقدسة من المسلمين بالشام ؛ ومن أجل هذا الهدف الدينى وحده حملوا الصليب وهجروا الأهل والأوطان قاصدين بلاداً طالما حنوا إليها وسمعوا بها فى كتبهم الدينية .

والواقع أنه ليس أبعد عن الحقيقة والتاريخ من القول بأن الحروب الصليبية لم تكن إلا حروباً دينية قام بها أناس أداروا ظهورهم للدنيا ومتاعها ولم يستهدفوا غرضاً سوى الدين وخدمة الدين . وإن نظرة يلقيها الباحث على سلوك الصليبيين فى الشرق سواء فيما يتعلق بالمعاملات فيما بينهم وبين بعض ، أو فيما

يتعلق بتصرفاتهم تجاه أهل البلاد الأصليين ؛ لتوضح أن أولئك الصليبيين لم يكن لهم من المسيحية إلا اسمها ، وأنهم ظلوا دائماً أبعد ما يكونون عن روح المسيحية ، وهى الديانة السماوية الكريمة التى حرص القرآن على تكريم نبيها تكريماً لم يحظ به أحد من الأنبياء السابقين .

وأى وازع دينى كان عند أولئك الغزاة الذين لم يحجموا عن ذبح سبعين ألف مسلم فى المسجد الأقصى غداة سقوط بيت المقدس فى أيديهم فى يوليه سنة ١٠٩٩م ؟ بل أى وازع دينى كان عند أولئك الصليبيين الغربيين عندما اقتحموا القسطنطينية سنة ١٢٠٤م — وهو البلد المسيحى الآمن — وعندئذ لم يتورعوا عن نهب كنائسها والاعتداء على أهاليها المسيحيين وهم إخوانهم فى الدين ؟

لعل فى هذه الشواهد وغيرها ما يكفى لأن يجعلنا نبحث عن عوامل أخرى حقيقية غير العامل الدينى حركت تلك الجموع من الصليبيين نحو الشرق وظلت تغذى حركتهم طوال عدة قرون تالية . حقيقة إن البابوية هى التى دعت للحروب الصليبية وأعلنتها حربا عارمة بدعوى استرداد الأماكن المقدسة من المسلمين فى الشرق ؛ ولكن ما الذى جعل جموع الناس فى غرب

أوربا يستجيبون فى سرعة وحماسة لنداء البابوية ؟ ثم ، أكانت البابوية ذاتها عندما دعت للحروب الصليبية تستهدف خدمة الدين حقا أم أنها كانت ترمى إلى تحقيق مكاسب وأطماع ذاتية خاصة أهمها بسط نفوذ الكنيسة الغربية الكاثوليكية على الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية ؟

إن الرأى الحديث يتجه إلى تأكيد أهمية العامل الاقتصادى فى دفع فئات كثيرة من أهالى غرب أوربا إلى المشاركة فى الحركة الصليبية . وقد قوى من هذا الرأى بالذات أن غرب أوربا — وبخاصة فرنسا — تعرض لأزمة اقتصادية عنيفة فى أواخر القرن الحادى عشر ، الأمر الذى أدى إلى ندرة القوت وارتفاع الأسعار واشتداد الجوع حتى اضطر الفقراء إلى أكل العشب والحشائش . وفى ضوء هذه الظاهرة نستطيع أن نفسر ظاهرة الإقبال المنقطع النظير الذى لقيته الحملة الصليبية الأولى من عامة الناس والمعدمين والفقراء ، وهؤلاء جميعاً كانوا يفكرون بوحى من بطونهم لا قلوبهم وعقولهم ، عندما اختاروا طريق الشرق ، بدليل ما ارتكبوه من جرائم السلب والنهب والعدوان على الشعوب المسيحية التى مروا ببلادها فى طريقهم إلى الشرق .

أما المدن الإيطالية التجارية — وبخاصة الثلاث الكبرى

بيزا والبندقية وجنوا — التى أسهمت فى الحروب الصليبية بدور بارز ملحوظ ؛ فلا يخفى علينا أنها كانت تجرى دائماً وراء مصالحها الاقتصادية ، وتسعى لتحقيق مكاسبها ليس على حساب المسلمين فى الشرق فحسب ، بل على حساب البابوية والكنيسة والصليبيين جميعاً . ويشهد تاريخ الحروب الصليبية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر على أن القوى الإيطالية التجارية لم تشارك فى تلك الحروب بدافع التقوى والشعور الدينى ؛ وأنها لم تتورع فى أصعب الأوقات حرجا بالنسبة للصليبيين عن إثارة الفتنة بين القوى الصليبية بعضها وبعض فى سبيل تحقيق مكاسبها الخاصة .

وبالإضافة إلى هذا العامل الاقتصادى الذى ظهر أثره واضحاً فى تحريك موجة الحروب الصليبية ، ينبغى ألا نسقط من حسابنا الأوضاع الاجتماعية فى غرب أوربا فى القرن الحادى عشر . ذلك أن النظام الإقطاعى الذى ساد أوربا فى ذلك العصر ، قضى بأن تعيش الغالبية العظمى من الفلاحين والأقنان والعامة ذليلة تحت سيطرة أقلية متحكمة من الأمراء والفرسان الإقطاعيين . ولم يكن هناك ثمة أمل أمام أولئك الكادحين للخلاص من أوضاعهم التى ورثوها عن آبائهم وأجدادهم ، وإنما ارتبطوا

بالأرض رباطا أبديا ، يشقون فى فلاحتهم ويخلفهم أبناؤهم فى خدمتها ليقدموا ثمرة كدهم لسادتهم من الحكام الإقطاعيين .

لذلك لم تكد تعلو الدعوة للحرب الصليبية حتى وجدت استجابة مطلقة من غالبية العوام والفلاحين فى غرب أوربا ؛ فلبوا النداء فى سرعة وحماسة لا عن وازع دينى عميق ولا تحمسا للكنيسة وطاعة لرغبتها ؛ وإنما لأنهم وجدوا فى المشاركة فى تلك الحركة الجديدة فرصة قلما يتيحها الزمان للخلاص من حياة العبودية والظلم التى ظلوا يرسفون فى أغلالها أمدا طويلا . ومهما يتعرضوا له من مخاطر فى طريقهم إلى الشام ، ومهما يكن مستوى الحياة التى سيحيونها فى الشرق ، فإن الأمور لا يمكن أن تصل بهم إلى أسوأ من الحضيض الذى انحدروا إليه فى بلاد الغرب .

وبالإضافة إلى هذه العوامل ينبغى ألا يغيب عن أذهاننا أن نسبة كبيرة من أمراء غرب أوربا وفرسانها فكروا فى المشاركة فى الحركة الصليبية طمعا فى تحقيق جاه دنيوى أو نفوذ سياسى . والمعروف أن النظام الإقطاعى فى غرب أوربا قام فى العصور الوسطى على أساس الأرض بحيث صارت مكانة كل أمير أو فارس تتحدد بما يتحكم فيه من أراض حتى قيل « لا سيد دون

أرض » . ولكن ظروف النظام الإقطاعى نفسه وتطوره أدت إلى ظهور نسبة كبيرة من الأمراء والفرسان دون أرض ، لأن القانون الإقطاعى حرص دائماً على عدم تجزئة الإقطاع بين الورثة ونص على أن الإقطاع يكون دائماً من نصيب الابن الأكبر وحده دون بقية أبناء الأمير المتوفى . ولما كان أولئك الفرسان الذين يعيشون دون أراض — فى ظل نظام يستمد أهميته من الأرض — يحسون دائماً بحرج موقفهم ؛ فإنهم تحمسوا للمشاركة فى الحرب الصليبية طمعا فى تأسيس إمارات لأنفسهم فى الشرق والاستيلاء على أراض تعوضهم عن سوء موقفهم فى الغرب .

وهكذا تجمعت عوامل عديدة — اقتصادية واجتماعية وسياسية — لتجعل فئات متنوعة وجموعا غفيرة من أهالى غرب أوربا يلبون الدعوة للحرب الصليبية ، ويجدون فى تلك المغامرة الجديدة فرصة ذهبية للخلاص من ديونهم وسوء أحوالهم أو لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية فى الشرق . وإذا كان أولئك المغامرون قد حرصوا على إلصاق شارة الصليب على ثيابهم — مما أكسب حركتهم اسم الحروب الصليبية فى التاريخ — فإنه ليس هناك مايثبت أن الصليب والكنيسة والدين كانت

القوى الكبرى التى حركت مشاعرهم وجعلتهم يتحمسون لنداء البابوية . وربما كان أقرب إلى الصواب ما قاله أحد كبار المؤرخين الغربيين المحدثين — هو الأستاذ طومسون — من أنه يعتبر الحروب الصليبية أول حركة استعمارية كبرى قام بها الغرب الأوربى فى أواخر العصور الوسطى .

* * *

وثمة رأى خاطىء فى التاريخ طالما ردده أعلام المدرسة القديمة من المؤرخين والكتاب الغربيين ، هو أن المسيحيين فى الشرق الأدنى تعرضوا لعدوان فريد من نوعه فى أواخر القرن الحادى عشر ، وأن الطريق إلى بيت المقدس غدا موصداً فى وجه الحجاج المسيحيين ، مما استثار الكنيسة والناس جميعاً فى غرب أوربا وأدى إلى مولد الحركة الصليبية .

وقد أثبتت الأبحاث الحديثة التى قام بها المؤرخون الأوربيون أنفسهم خطأ هذا الرأى وبعده عن الحقيقة والتاريخ . فليس حقيقيا أن المسيحيين فى البلدان الإسلامية ، تعرضوا لموجة اضطهاد وحشى فى القرن الحادى عشر ، وأن كنائسهم خربت وطقوسهم عطلت . وليس حقيقيا أن حجاج الغرب المسيحيين الوافدين إلى بيت المقدس صادفوا عنتا وسوء معاملة من حكام

البلدان الإسلامية التى مروا بها. ذلك أن طبيعة الإسلام وأسلوب الدعوة إليه ، وما أحاط به القرآن أهل الكتاب من رعاية ، كل هذه أشياء تتنافى وتلك الافتراءات .

ويثبت التاريخ أن المسيحيين عاشوا دائما فى كنف الدولة الإسلامية عيشة هادئة يباشرون طقوسهم ويتمتعون بحقوقهم كاملة « فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد » .

وإذا كانت هناك إشارات فى كتب التاريخ لقيام بعض الحكام الذين عرفوا بشذوذهم — مثل الحاكم بأمر الله الفاطمى — باضطهاد أهل الذمة ؛ فإننا يجب أن نذكر دائما أن هذه الحالات فردية ومؤقتة وتعد خروجا على المبدأ العام الذى سارت عليه الدولة الإسلامية منذ قيامها ، والذى حرص دائما أبدا على رعاية أهل الكتاب والعطف عليهم ؛ بل الاستعانة بهم وفتح الطريق أمامهم للوصول إلى أكبر مناصب الدولة وأخطرها . فإذا جاز أن حاكما عرف بشذوذه خرج عن هذا الأسلوب الذى هو أسلوب الإسلام فإن الأمور كانت لا تلبث أن تعود إلى ما كانت عليه بعد قليل ، فيحظى أهل الكتاب بما تعودوه دائما من رحابة صدر الإسلام والمسلمين .

وأخيرا ، فقد شهد شاهد من أهلهم ، عندما كتب بطرك بيت المقدس فى القرن التاسع رسالة خاصة سرية إلى زميله بطرك القسطنطينية ، وجاء فى هذه الرسالة بالنص القطعى « إن المسلمين قوم عادلون ، ونحن لا نلقى منهم أى أذى أو تعنت » ويعلق أحد الكتاب الغربيين المحدثين على ذلك بقوله : « إن الحق يتطلب منا أن نعترف بأن المسيحيين عاشوا فى كنف الدولة الإسلامية ، أسعد حالا بكثير مما كانت عليه بعض الطوائف المسيحية التى عاشت فى كنف الدولة البيزنطية ذاتها » .

الصليبيون فى الشام

مرت الدولة العباسية بدور من الذبول والانحلال منذ أواخر القرن التاسع للميلاد ، فانتشرت الثورات والحركات الانفصالية بين ربوعها ؛ وظهرت على حسابها دويلات صغيرة مستقلة لا تدين بالطاعة للخليفة العباسى فى بغداد أو سامراء ؛ بل لقد خضع الخلفاء العباسيون أنفسهم لأمراء مسلمين من أصل فارسى — مثل بنى بويه — الذين سلبوا الخليفة سلطانه الفعلى واتخذوا لأنفسهم لقب إمرة الأمراء .

وصادف أن جاء ذبول الدولة العباسية وانحلال أمرها مصحوبا بصحوة دولة الروم أو البيزنطيين ، وهم الأعداء التقليديون للدولة الإسلامية فى المشرق ، والذين كانت نار الحرب بينهم و بين العباسيين لاتهدأ حينا إلا لتثور أحيانا . لذلك لم يكن عجبا أن يستغل أباطرة الروم فرصة انحلال الخلافة العباسية ليقوموا فى القرن العاشر للميلاد بحركة هجومية توسعية ضخمة على حساب جيرانهم المسلمين ، وبخاصة فى العراق والشام. وجدير بالذكر أن تلك الحرب التى شنها الروم على المسلمين

عندئذ اتخذت مسحة دينية واضحة ظهرت فى الرسالة التى أرسلها امبراطور القسطنطينية نقفور فوقاس إلى الخليفة العباسى يهدده بالاستيلاء على بلاده وهدم الكعبة ونشر المسيحية فى المشرق والمغرب جميعا .

على أن الموقف لم يلبث أن تبدل عندما ظهر على المسرح الأتراك السلاجقة ليبثوا فى الدولة الإسلامية روحا جديدة ويغذوها بدماء فتية . ذلك أن سلاطين السلاجقة لم يكتفوا بفرض حمايتهم على الخلافة العباسية المتداعية ، وإنما نصبوا أنفسهم حماة للمسلمين فى الشرق الأدنى ضد هجمات الروم على بلادهم . وهكذا دارت بين السلاجقة والروم حروب طاحنة فى القرن الحادى عشر للميلاد ، حتى تمكن السلطان ألب أرسلان السلجوقى من أن ينزل هزيمة ساحقة بالإمبراطور البيزنطى رومانوس الرابع فى موقعة مانزكرت — فى القطاع الشرقى من آسيا الصغرى — سنة ١٠٧١ .

والواقع أن موقعة مانزكرت تعد من المواقع الخطيرة الفاصلة فى التاريخ ، حيث أن الروم فقدوا فيها جيشهم بأكمله بين أسرى وقتلى ؛ وكان من جملة الأسرى الإمبراطور رومانوس الرابع نفسه الذى لم يفرج عنه السلاجقة إلا بشروط

قاسية . ولكنه مهما يقل عن أهمية موقعة مانزكرت ، وعما ترتب عليها بعد ذلك من توغل السلاجقة بعيدا فى جوف بلاد الروم ؛ فإننا لا نرى فى كل ذلك شيئا جديدا يمكن أن نعده سببا حقيقيا للحركة الصليبية . ذلك أنه منذ وصول المسلمين إلى شواطىء البحر المتوسط فى القرن السابع للميلاد وانتزاعهم الشام ومصر من الدولة البيزنطية ، والحروب لم تنقطع بينهم وبين الروم . وفى بعض أدوار تلك الحرب التقليدية بين المسلمين والروم ، أوغل المسلمون فى آسيا الصغرى حتى البسفور ؛ بل لقد حاصر الأسطول الإسلامى والجيوش الإسلامية القسطنطينية نفسها أكثر من مرة ؛ ومع ذلك لم تقم حرب صليبية ولم تظهر محاولة فى غرب أوربا لمنع المسلمين من تهديد بلد هو بمثابة الباب الشرقى لأوربا المسيحية .

وعلى ذلك أستطيع أن أقرر — مخالفاً فى الرأى جمهرة أبناء المدرسة القديمة من المؤرخين — أنه من المبالغة التاريخية أن نربط ربطاً وثيقاً محكماً بين موقعة مانزكرت ووصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق ؛ وأن نعد الحركة الصليبية صدى مباشراً لموقعة مانزكرت بالذات . فإذا كانت الهزيمة قد حلت ساحقة بالروم فى موقعة مانزكرت ، فما أكثر الهزائم التى حلت

بالروم على أيدى المسلمين من قبل ! وإذا كان السلاجقة قد أوغلوا بعيداً فى جسم الإمبراطورية البيزنطية بعد مانزكرت ، فما أبعد ماأوغل المسلمون فى آسيا الصغرى من قبل ! وإذا كانت إمبراطورية الروم قد استنجدت بالبابوية والغرب الأوربى غداة الكارثة التى حلت بها فى مانزكرت ، فما أكثر ما استنجد الروم بغرب أوربا من قبل دون أن يصادف نداؤهم استجابة من البابوية ، أو من الأمراء وعامة الناس فى الغرب .

وربما كان أقرب إلى الصواب أن نبحث عن مفتاح الموقف فى الغرب لا فى الشرق . فالكنيسة الغربية فى أواخر القرن الحادى عشر كانت قد خرجت أقوى ما تكون من حركة إصلاح شاملة طهرت جهازها ودعمت نفوذها وجعلت من البابا قوة كبرى دونه أباطرة الغرب وملوكه . ولكن هذه الطاقة الكبرى التى تزودت بها الكنيسة كان لابد لها من منفذ أو آخر تعبر فيه عن نفسها وتنفس به عن قوتها الجديدة وطاقاتها المكبوتة . وفى سبيل التنفيس عن تلك الطاقة الدافقة دخلت الكنيسة الغربية فى نزاع جاد مع الأمبراطورية الرومانية المقدسة فى الغرب . ولكن إثارة حرب أهلية فى المجتمع الغربى بين المسيحيين بعضهم وبعض لم يكن الطريق المثالى الذى ينبغى

أن تسلكه الكنيسة الغربية لاستنفاد حماستها والتنفيس عن طاقتها المكبوته. فلم يبق إذن سوى المسلمين لكى تتجه الكنيسة الغربية ضدهم وتحاول أن تنال لنفسها منهم ثارا قديما طالما تاقت إلى نيله منذ أن نجح المسلمون فى القرنين السابع والثامن فى الاستيلاء على أجزاء كانت تعتز بها المسيحية، مثل الشام ومصر وشمال إفريقية وأسبانيا.

وكان أن بدأت الحركة الصليبية التى شنها الغرب الأوربى ضد المسلمين؛ ولكن أولى حلقات هذه الحركة بدأت فى المغرب لا فى المشرق، فشن المسيحيون حربا لا هوادة فيها على المسلمين فى الأندلس وفى جزيرة صقلية. وفى تلك الحرب شاركت البابوية والكنيسة الغربية مشاركة فعالة بجهودها وأموالها. ولم تغب هذه الحقيقة عن فطنة المؤرخين المسلمين ـ مثل ابن الأثير ـ الذى استهل كلامه عن هجوم الصليبيين على الشام فى أواخر القرن الحادى عشر بالإشارة إلى أن « ابتداء ظهور دولة الفرنج واستبداد أمرهم وخروجهم إلى الإسلام وبلادهم واستيلائهم على بعضها » كان بالاستيلاء على طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس ثم على جزيرة صقلية. وفى الوقت الذى أخذت البابوية تبارك هجمات المسيحيين على المسلمين فى الأندلس وصقلية، انبعث

لزوت استغاثة خافتة من القسطنطينية تشكو ما حل بالإمبراطورية الشرقية وجيشها وامبراطورها على أيدى المسلمين فى ما نزكرت وتطلب النجدة السريعة من الغرب لدفع خطر السلاجقة . وفى هذه المرة كانت الظروف فى الغرب الأوربى مواتية لتلبية النداء، وكانت البابوية والكنيسة الغربية على أتم استعداد لمد نشاطها إلى الشرق ، لاسيما بعد أن رأت البابوية فى ذلك فرصة ذهبية للقضاء على كيان الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية وبسط سيادة البابا فى روما على المسيحيين فى الشرق والغرب جميعا . وهكذا دعا البابا أوربان الثانى للحرب الصليبية ضد المسلمين فى الشرق سنة ١٠٩٥م ، وصادفت دعوته قبولا عاما بين مختلف طبقات الحاكمين والمحكومين للأسباب الاقتصادية والاجتماعيةوالسياسية السابق شرحها فى الفصل السابق .

* * *

وقد اعتاد المؤرخون عند كلامهم عن الحروب الصليبية أن يعنوا بثمانى حملات فقط ؛ أضفوا عليها تشريفا خاصا ، ومنحوها ألقابا عددية أكسبتها أهمية خاصة فى التاريخ ؛ فيقال مثلا الحملة الأولى والثانية والثالثة . . . إلخ . والواقع أن هذه ظاهرة غريبة تستحق التأمل ، لا سيما إذا عرفنا أنه منذ وصول

الحملة الصليبية الأولى إلى الشام سنة ١٠٩٧ ، وحتى طرد الصليبيين نهائيا من الشام سنة ١٢٩١ ، لم يمر عام واحد تقريبا دون وصول جمع أو أكثر من الحجاج الصليبيين إلى الشرق . وبعض هذه الجموع فاقت فى أعدادها وفى أهمية ما قامت به من أعمال فى الشرق الحملات الصليبية المعروفة ؛ ومع ذلك فإنها لم تحظ بتشريف خاص أو رقم عددى يضفى عليها شيئاً من الأهمية فى التاريخ . وربما كان السر فى هذه الظاهرة هو أن الحملات المرقمة المشهورة إنما اكتسبت أهمية خاصة لما أصابته من نجاح أو فشل استرعى الانتباه ، أو لأنه كان على رأسها بعض الملوك والأباطرة الغربيين الذين تمتعوا بشهرة خاصة فى التاريخ .

ومهما يكن من أمر ، فإنه لم يكد يحل ربيع سنة ١٠٩٦ حتى كانت قد خرجت من الغرب جموع غفيرة من العامة ، شقت طريقها عبر البلقان متجهة إلى الشرق . وسرعان ما أحس إمبراطور الروم وشعبه بخيبة أمل كبيرة بعد أن طلبوا من البابوية والغرب إمدادهم بجيوش حربية منظمة تساعدهم فى دفع خطر السلاجقة ؛ فإذا هم يفاجئون بوصول حشود من الدهماء يعتدون على أهالى الإمبراطورية الآمنين ويسلبونهم مايمتلكون .

وإزاء ذلك الخطر الجديد . أسرع إمبراطور الروم بنقل تلك الجموع الصليبية إلى آسيا الصغرى حتى لا يمكنهم من أن يعيثوا فساداً فى عاصمته القسطنطينية . ولم يكن منتظراً أن يستطيع أولئك العوام — الذين يجهلون أساليب الحرب واستخدام السلاح — الصمود فى وجه السلاجقة ، فقضوا عليهم وحولوهم إلى كومة ضخمة من الأشلاء ، وكان ذلك قرب نيقية فى أكتوبر سنة ١٠٩٦م .

على أنه إذا كان أولئك المعدمون قد فشلوا فى الوصول إلى الشام بسبب سوء تنظيمهم وجهلهم بشئون القتال ؛ فإن الشطر النظامى من الحملة الصليبية الأولى كان مؤلفاً من فرسان مدربين ، يقودهم أمراء مارسوا حياة القتال وأساليب الفروسية فاستطاعوا الوصول إلى الشرق سالمين سنة ١٠٩٧م.

وقد حققت هذه الحملة الأولى المؤلفة من الفرسان والأمراء نجاحاً منقطع النظير ، إذ نجحت فى تثبيت أقدام الصليبيين بالشام وشمال العراق ؛ مما ترتب عليه قيام ثلاث إمارات صليبية كبرى هى إمارات الرها وأنطاكية وطرابلس ، فضلا عن تأسيس مملكة صليبية فى بيت المقدس .

وهنا نلاحظ أن تلك الانتصارات السريعة العاجلة التى حققها

الصليبيون فى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر لا يرجع الفضل فيها إلى قوتهم وتماسكهم وشجاعتهم، بقدر ما يرجع إلى ضعف القوى الإسلامية فى الشرق الأدنى وانحلال أمورها . ذلك أن دولة السلاجقة التى حطمت قوة الروم فى مانزكرت لم تلبث أن تعرضت للذبول السريع، بحيث لم تكد تحل سنة ١٠٩٧ إلا وكانت قد انقسمت إلى خمس ممالك متنافسة . وقد أدى ضعف دولة السلاجقة وما دار بين ملوكها من حروب أهلية إلى انتشار الفوضى فى بلاد الشام والعراق بوجه خاص، حيث ظهرت الأتابكيات وهى بيوت حاكمة صغيرة قد لا يتعدى نفوذ الواحدة منها مدينة صغيرة .

وفى ذلك الوقت كانت الخلافتان الإسلاميتان اللتان تتنازعان شعور المسلمين فى الشرق الأدنى، وهما : الخلافة العباسية السنية فى بغداد والخلافة الفاطمية الشيعية فى القاهرة، تمران بدور واضح من الضعف؛ والخليفة فى كل من بغداد والقاهرة يعيش مسلوب السلطان تحت سيطرة أمير كبير أو وزير عظيم، وقد بلغ أمر التنافس بين هاتين الخلافتين السنية والشيعية أنه فى الوقت الذى طرق الصليبيون أبواب الشام لم يحجم الفاطميون عن انتهاز الفرصة للاستيلاء على بيت المقدس وسلب السلاجقة

السنين بعض نفوذهم بالشام . وهكذا وصل الصليبيون إلى الشام فى أواخر سنة ١٠٩٧ ليجدوا أمامهم قوى إسلامية ضعيفة أنهكها النزاع المذهبي وباعدت بينها الأطماع والمنافسات مما مكن الصليبيين من تحقيق مكاسب سهلة سريعة .

وليس معنى ذلك أن المسلمين فى الشرق الأدنى استسلموا للصليبيين وتركوهم يستولون على بلادهم ويسبحون بين أرجائها فى أمن وسلام ؛ إذ هناك من الشواهد ما يثبت قوة المقاومة التى أبداها المسلمون لدفع عادية البغاة وطردهم من أرض العروبة . أجل ؛ خرجت الجيوش من فارس والعراق ومصر لدفع المعتدين وحاول السلاجقة والعرب جميعاً أن يصمدوا فى وجه ذلك الخطر الجديد .

والواقع أن أهم ما ميز تاريخ الشرق الأدنى فى تلك الحقبة كان الترابط العاطفى ووحدة الأحاسيس التى جمعت بين أبناء الشعب العربى ؛ فلا يكاد الصليبيون يستولون على بلد فى الشام حتى يثور الرأى العام فى بغداد ويتجمع الناس فى المساجد مطالبين الخليفة والسلطان باتباع سياسة إيجابية فى جهاد الغزاة ؛ ولا يكاد الناس فى القاهرة أو دمشق يسمعون بتوسع الصليبيين

فى شمال العراق والشام حتى تقام المآتم وتضغط الشعوب على حكامها للخروج لدفع دعاية المعتدين .

على أنه يؤسفنا أن نقرر أن جميع تلك الجهود فى ذلك الدور الأول من أدوار الغزو الصليبي كانت جهودا فردية لم تنتظمها وحدة ولم تنسق بينها خطة شاملة ، مما أدى إلى ضياعها عبثا دون نتيجة واضحة . وبذلك استمر الصليبيون فى بلاد الشام يبغون ويتوسعون فى الاتجاه الشمالى الشرقى صوب الجزيرة والعراق ، وفى الاتجاه الجنوبى الغربى صوب مصر ؛ فضلا عن التوسع الصليبي فى بلاد الشام ذاتها على حساب القوى الإسلامية الصغيرة المتناثرة هنا وهناك .

ومن الواضح أن هذا الوضع كان لا يمكن أن يستمر طويلا . وسرعان ما أدرك العقلاء من المسلمين أن انقسامهم هو سبب الكارثة التى حلت بهم وأنه لا أمل للمسلمين فى الشرق الأدنى فى الاحتفاظ بكيانهم واستعادة حرية بلادهم إلا بالوحدة ؛ وحدة الهدف ، ووحدة الصف . ولم يكن طريق الوحدة بالسهل وإنما كان طريقا صعبا شاقا مليئا بالأشواك بسبب مطامع الحكام : وحرص كل منهم على أن يحتفظ بدائرة سلطانه دون أن يضحى بشيء فى سبيل الصالح العام للمسلمين .

ومع ذلك ، فإن دعاة الوحدة مضوا فى طريقهم لا يلوون على شىء ، حتى استطاع عماد الدين زنكى أتابك الموصل أن يضم إليه حلب سنة ١١٢٨ ، كما ضم حماة وحمص بعد سنوات قليلة ، وبذلك امتدت الجبهة الإسلامية المتحدة لتجمع بين شمال العراق وشمال الشام . وسرعان ما جنى المسلمون ثمار هذه الوحدة الصغيرة عندما استطاع زنكى الاستيلاء على الرها سنة ١١٤٤ ، وبذلك فقد الصليبيون أول إمارة لهم أسسوها فى الشرق ، مما يعتبر إيذانا بانهيار البناء الصليبي بأكمله .

وقد أدرك نور الدين محمود — بن زنكى — أن تلك الوحدة الجزئية التى حققها أبوه زنكى بين شمال العراق وشمال الشام لا تكفى لتحقيق آمال المسلمين فى الحرية ، وأن طرد الغزاة الصليبيين من الشام لا يتأتى إلا عن طريق تحقيق جبهة قوية إسلامية تمتد من الفرات إلى النيل . وكانت العقبة الكبرى فى طريق الجبهة هى دمشق التى أصم حكامها الانفصاليون آذانهم عن قضية الوحدة ؛ بل إنهم لم يتورعوا عن محالفة الصليبيين ضد إخوانهم المسلمين حرصا على جاههم وملكهم . ولكن تيار الوحدة كان دائما أقوى من أن يستطيع حاكم انفصالى خائن وقفه ، فثار أهل دمشق الأبرار على حكامهم الخونة ،

ومدوا أيديهم لنور الدين محمود الذى تمكن من ضم دمشق سنة ١١٥٤ ، وبذلك ازدادت الجبهة الإسلامية قوة ، ولم يبق إلا مصر لتكتمل هذه الجبهة .

ومن الواضح أن الصليبيين بالشام لم يكونوا ليتركوا الجبهة الإسلامية المتحدة تمتد فى سهولة من الفرات إلى النيل ، لأن معنى استيلاء نور الدين محمود على مصر — فضلا عن دمشق وحلب والموصل — هو أن مملكة بيت المقدس الصليبية بالذات ستقع بين شقى الرحى . وكانت الخلافة الفاطمية فى مصر عندئذ — بعد منتصف القرن الثانى عشر — تعانى فعلا آلام الموت البطىء ؛ مما جعل مصر تبدو غنيمة سهلة أمام نور الدين والصليبيين جميعا . لذلك اشتد التسابق بين الطرفين حول الفوز بمصر ، وقامت جيوش نور الدين والصليبيين بغزو مصر أكثر من مرة ؛ حتى انتهى السباق بفوز نور الدين بمصر سنة ١١٦٩ . ولم يلبث أن مات الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين بمصر بعد أن تم رسميا تحويل مصر للمذهب السنى ؛ وبذلك أصبحت الجبهة الإسلامية المتحدة تمتد من الفرات إلى النيل ، وعلى رأس هذه الجبهة رجل قوى جمع فى قبضته بين القاهرة ودمشق وحلب والموصل ؛ هو نور الدين محمود الذى لم يبق أمامه سوى توجيه

جهود المسلمين فى الشرق الأدنى لطرد الغزاة الطامعين .

ويبدو أن أهم ماتمخضت عنه حوادث الصراع بين نور الدين والصليبيين حول الفوز بمصر هو ظهور شخصية صلاح الدين على المسرح . وقد أجمعت المراجع المعاصرة — العربية وغير العربية — على امتداح شخصية صلاح الدين وبطولته ومثابرته على الجهاد وكرم أخلاقه ورحمته واعتداله ، الأمر الذى جعل منه الشخصية الكبرى البارزة فى تاريخ الحروب الصليبية . وكان أن شاءت الأقدار أن يخلف صلاح سيده نور الدين فى دولته ويرثه فى سياسته ، وعندئذ وضع صلاح الدين لنفسه برنامجا ضخما يتلخص فى التمكين لنفسه أولا ثم فى مواصلة سياسة الجهاد ضد الصليبيين بعد ذلك . ولم تكد تحل سنة ١١٨٦ حتى كان صلاح الدين قد أصبح القوة الكبرى فى محيط الشرق الأدنى بعد أن قضى على المؤامرات الداخلية ووحد القوى الإسلامية تحت زعامته ؛ وبذلك أمكنه أن ينزل ضربة كبرى بالصليبيين فى موقعة حطين سنة ١١٨٧ .

والواقع أن موقعة حطين كانت أضخم من مجرد هزيمة حربية حلت بالصليبيين . لقد كانت فى حقيقة أمرها كارثة شاملة بعد أن فقد الصليبيون فيها زهرة فرسانهم بين أسرى وقتلى ؛

ووقع ملك بيت المقدس نفسه ومجموعة من كبار أمراء الصليبيين وفرسانهم أسرى فى قبضة صلاح الدين . وفوق هذا وذاك ، فقد كانت موقعة حطين تجربة ظهرت فيها أخلاق صلاح الدين على حقيقتها ؛ كما وضحت فيها مواهبه العسكرية وضوحاً تاماً . ذلك أنه أبى إلا أن يكرم أسرى الصليبيين فى كل بلد استولى عليه ، فحرم على جنوده الاعتداء عليهم وعلى ممتلكاتهم وسمح لهم بالخروج آمنين سالمين إلى حيث شاءوا من المدن الصليبية الأخرى القريبة . فإذا فرض أموالا على الأسرى مقابل إطلاق سراحهم ، فإنه كان يحرص على إعفاء فقراء الصليبيين من ذلك المال ؛ وبذلك استطاع صلاح الدين — كما يقول أحد المؤرخين الأوربيين — أن يلقن البرابرة الغربيين درساً فى الأخلاق كانوا فى أشد الحاجة إليه . ثم إن مهارة صلاح الدين الحربية بدت فى أنه لم يضع ثمرة انتصاره فى حطين ، وإنما بادر بتعقب الصليبيين فاستولى على ما كان بأيديهم من مدن وموانى ساحلية جنوبى عكا ليقطع الصلة بينهم وبين الغرب الأوربى ؛ كما استولى على مدينة بيت المقدس ذاتها سنة ١١٨٧ .

وهكذا بدا أن البناء الصليبي الكبير الذى أخذ الدخلاء فى تشييده فى الشرق الأدنى منذ أواخر القرن الحادى عشر

قد تصدع فجأة وتعرض للانهيار السريع . ولكن على الرغم من تسامح صلاح الدين المطلق مع الصليبيين وحرصه على عدم مؤاخذتهم على ما اقترفته أيديهم من جرائم عند استيلائهم على بيت المقدس سنة ١٠٩٩ ؛ فإن أخبار حطين وضياع بيت المقدس أثارت الشعور العام فى غرب أوربا . ولم تلبث أن وصلت إلى الشرق الحملة الصليبية الثالثة وعلى رأسها ثلاثة من أعظم حكام الغرب فى ذلك الوقت : هم فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا وفيلب أوغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا . وقد قدر للإمبراطور فردريك بربروسا أن يغرق فى أحد أنهار آسيا الصغرى وبذلك لم يصل إلى الشام وتشتت رجاله . أما فيلب أوغسطس ملك فرنسا فقد وصل إلى الشام فى أبريل سنة ١١٩١ ، فبادر على الفور بمساعدة الصليبيين الذين كانوا يحاصرون عكا ؛ حتى إذا ماسقطت عكا فى أيديهم اعتذر ملك فرنسا بمرضه وعاد إلى بلاده فى الغرب .

على أن أبرز رجال الحملة الصليبية الثالثة كان بدون شك ريتشارد قلب الأسد صاحب الدور المشهور مع صلاح الدين . ذلك أن ريتشارد ألفى نفسه بعد عودة ملك فرنسا الزعيم الأوحد للصليبيين بالشام ، فقام بجهود كبيرة لمحاولة إعادة

الموقف فى الشام إلى ما كانت عليه قبل موقعة حطين . وإذا كان ريتشارد قد استطاع الاستيلاء على بضعة مراكز — مثل حيفا وقيسارية وأرسوف — إلا أنه فشل فى الاستيلاء على بيت المقدس ، وهى الهدف الأول للصليبيين بالشام . هذا إلى أن صلاح الدين لم يترك ريتشارد يتحرك حرًّا طليقاً ، وإنما أخذت جيوش المسلمين تطارد الصليبيين وتوقع بهم وتنزل بهم الخسائر الجسيمة .

وأخيراً أدرك ريتشارد أن خسائره فاقت ماحققه من مكاسب، وأن الحرب طالت مع المسلمين دون تحقيق نتائج واضحة . هذا فى الوقت الذى مرض فيه ريتشارد من ناحية ، وتطلبت أوضاع بلاده فى الغرب عودته من ناحية أخرى . لذلك أرسل ريتشارد إلى صلاح الدين يطلب الصلح ويقول « إن المسلمين والإفرنج قد هلكوا ، وخربت البلاد وخرجت من يد الفريقين بالكلية . وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين . وقد أخذ هذا الأمر حقه . . . ونصطلح ونستريح من هذا التعب الدائم ! ! ».

وهكذا دخل الفريقان فى مفاوضات أدت إلى عقد صلح الرملة فى أوائل سبتمبر سنة ١١٩٢ ، وهو الصلح الذى حفظ للمسلمين بيت المقدس مع السماح لحجاج المسيحيين بحرية الحج

والزيارة ؛ فى الوقت الذى احتفظ الصليبيون بالمنطقه الساحلية الممتدة من صور إلى يافا . وبعد عقد الصلح عاد ريتشارد إلى بلاده فى حين توفى صلاح الدين فى العام التالى — مارس سنة ١١٩٣ — بعد أن أنزل بالصليبيين ضربة لم يفيقوا منها مطلقاً حتى تم طردهم نهائياً من بلاد الشام بعد قرن من الزمان[١] .

(١) للوقوف على التفصيلات ، انظر : سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ٨٧٠ — ٩٠١ .

مصر والحروب الصليبية

خرج الصليبيون من الأحداث التى صحبت مولد الجبهة الإسلامية المتحدة الممتدة من الفرات إلى النيل بفكرة واضحة عن أهمية مصر بالنسبة لسلامة بقائهم فى الشام . ثم جاء ظهور صلاح الدين على المسرح و بلاؤه ضد الصليبيين ليزيد هذه الفكرة رسوخا ، لا سيما بعد أن رأى الصليبيون بأعينهم أن صلاح الدين استمد من مصر بالذات القوة الرئيسية التى مكنته من توجيه ضرباته القاصمة ضد الصليبيين ..وأخيراً انتهت الحملة الصليبية الثالثة بالفشل سنة ١١٩٢ و مات صلاح الدين بعد قليل ، ولكن بعد أن آمن الصليبيون إيمانا لا يتزعزع بأن مفتاح بيت المقدس يوجد فى القاهرة ، وأنه لا بقاء لهم بالشام إلا إذا أمنوا جانب مصر أولا .

ومهما يقل من أن تفكير الصليبيين فى غزو مصر قديم يرجع إلى سنة ١١١٦ عندما قام بلدوين — أول ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية — بحملة استكشافية أوصلته إلى أيله وسيناء والفرما وتنيس ؛ فإنه يلاحظ أن الحملات التى قام بها

بلدوين الأول — أو الملك عمورى الأول بعد ذلك — للاستيلاء على مصر ، كانت حملات محلية خرجت من فلسطين دون أن يسهم الغرب الأوربى فيها بنصيب واضح يدل على إدراك القائمين على أمر الفكرة الصليبية فى الغرب لأهمية مصر بالنسبة لبقاء الصليبيين بالشام . وهذا يختلف إلى حد كبير عن التطور الذى طرأ على الفكرة الصليبية نفسها بعد الحملة الصليبية الثالثة ووفاة صلاح الدين ؛ إذ آمن غرب أوربا بأن مصر يجب أن تكون الهدف الأول للحملات الصليبية الكبرى التى تخرج إلى الشرق . وقد ظهر هذا الاتجاه واضحا فى أقوال وكتابات دعاة الحروب الصليبية فى الغرب منذ أوائل القرن الثالث عشر ؛ فهم حينا يشبهون مصر بأنها مخزن الإمدادات بالنسبة للمسلمين فى الشرق الأدنى ، وأحيانا يشبهونها بأنها رأس الأفعى الذى يجب قطعه للقضاء على المقاومة الإسلامية ؛ إلى غير ذلك من التشبيهات التى تدل على أن مصر بالذات غدت حجر الزاوية بالنسبة للمشروعات الصليبية منذ نهاية القرن الثانى عشر وأوائل القرن الثالث عشر .

ولم يلبث أن شهد القرن الثالث عشر عددا من الحملات الصليبية قصدت مصر بغية القضاء فيها على قلب المقاومة الإسلامية .

والواقع أن البابوية وأهل غرب أوروبا لم يرضوا عن نتيجة الحملة الصليبية الثالثة وعزَّ عليهم أن تظل بيت المقدس بأيدى المسلمين ، فتم إعداد الحملة الصليبية الرابعة بسرعة ، ووضعت خطتها على أن تتجه ضد مصر مباشرة . ولكن انحراف الحركة الصليبية عن أهدافها وتغلب المصالح التجارية والاقتصادية على الصالح الدينى ، جعل البنادقة يحولون وجهة هذه الحملة ضد القسطنطينية — وهو البلد المسيحى الآمن — فدخله الصليبيون ليعيثوا فيه فسادا ويعتدوا على كنائسه وأهله .

ولم ترض البابوية أيضا عن تلك النهاية التى آل إليها أمر الحملة الصليبية الرابعة ، فعادت تدعو لحملة جديدة ، هى الحملة الخامسة التى اتجهت إلى شواطىء مصر سنة ١٢١٨ . وكان أن وصل الصليبيون إلى الدلتا ، فنصبوا معسكرهم من السنة المذكورة على الضفة الغربية للنيل ، فى مواجهة مدينة دمياط . على أن الصليبيين ارتكبوا عدة أخطاء دلت على جهلهم بطبيعة البلاد ؛ أولها أنهم رسوا على الضفة الغربية للنيل بدلا من الضفة الشرقية التى تقع عليها مدينة دمياط ذاتها ، مما كلفهم عناء كبيرا فى عبور النيل بعد ذلك . وإذا كان الصليبيون قد تمكنوا من التغلب على هذه الصعوبة ، كما نجحوا فى الاستيلاء على دمياط ذاتها فى نوفمبر

سنة **١٢١٩** بعد حصار تسعة أشهر أبدت فيها المدينة وأهلها بسالة نادرة ؛ فإن الغلطة الثانية الكبرى التى ارتكبها الصليبيون أضاعت قيمة انتصارهم الأول .

ذلك أن الصليبيين لم يبادروا عقب استيلائهم على دمياط بالزحف مباشرة على القاهرة ، وإنما أضاعوا أشهرا طويلة بلا عمل فى دمياط ، حتى كان شهر أغسطس سنة **١٢٢١** وعندئذ أخذوا يتحركون جنوبا بحذاء النيل صوب القاهرة . وهكذا أثبت الصليبيون جهلا تاما وعدم دراية مطلقة بأحوال مصر ، بعد أن اختاروا موسم الفيضان وطريق النيل الزراعى للزحف إلى داخل البلاد ؛ فضلا عن حرارة أغسطس . ولم يلبث السلطان الكامل الأيوبى أن استغل تلك الظروف المواتية ، فأمر بقطع السدود « وفتح المسلمون عليهم الترع من كل مكان » فلم يشعر الغزاة بأنفسهم إلا وقد أحاطت بهم مياه الفيضان من كل ناحية ، فأرسلوا إلى السلطان الكامل يطلبون الصلح ، وأسرعوا بالعودة إلى بلادهم تلاحقهم خيبة الأمل ومرارة الفشل .

وعلى الرغم من أن الامبراطور فردريك الثانى — الذى أتى إلى الشرق على رأس الحملة الصليبية السادسة سنة **١٢٢٨** —

استطاع أن يحصل على بيت المقدس من المسلمين عن طريق المفاوضة وحسن السياسة ، إلا أن الغرب الأوربى لم يقنع ببيت المقدس ، وظل يحلم بالاستيلاء على مصر ذات الموقع الفريد والثروة الوافرة . وزاد من غضب الغرب ونقمته أن المسلمين عادوا واستردوا بيت المقدس سنة ١٢٢٤ ، مما أدى إلى تجمع حملة صليبية جديدة — هى الحملة الصليبية السابعة — التى تزعمها لويس التاسع ملك فرنسا .

ولم يحاول الملك لويس التاسع أن يستفيد من الدروس التى أخذتها الحملة الصليبية الخامسة قبل ذلك بثلاثين سنة ، فوقع فى نفس الأخطاء التى وقعت فيها تلك الحملة ، مما عرض لويس وحملته لمصير مشابه من الفشل والخيبة . ذلك أن الصليبيين نزلوا فى أوائل يونية سنة ١٢٤٩ على الضفة الغربية للنيل ، وإن كانوا فى تلك المرة لم يصادفوا صعوبة كبيرة فى الانتقال إلى الضفة الشرقية ثم فى الاستيلاء على مدينة دمياط ذاتها .

ومرة أخرى أضاع الصليبيون فى دمياط خمسة أشهر كاملة استطاع فيها السلطان الصالح نجم الدين أيوب — رغم مرضه — أن يتخذ كثيراً من الإجراءات الدفاعية وبخاصة قرب المنصورة. ولم يكد الصليبيون يشرعون فى الزحف من دمياط جنوباً

فى نوفمبر سنة ١٢٤٩ حتى توفى السلطان الصالح أيوب ، فقامت زوجته شجرة الدر بدورها البارز الذى سجله لها التاريخ ، واستمرت الاستعدادات الدفاعية تسير سيرها الطبيعى دون أن يعلم عامة الناس بوفاة السلطان .

على أن لويس التاسع أخطأ عندما اتبع طريق النيل فى الزحف على القاهرة ، وهو طريق كثير القنوات والترع والمياه ، ولابد لسالكه من دراية تامة بأحوال البلاد . ولو سلك لويس طريق الصحراء الشرقية لاستطاع أن يتجنب المصير السيء الذى تعرضت له الحملة الصليبية الخامسة قبل ثلاثين سنة . ذلك أن رجال لويس ما كادوا يصلون إلى نقطة تفرع بحر أشموم — أو البحر الصغير — من النيل ، حتى وجدوا أنفسهم فى موقف لايحسدون عليه ، بعد أن اشتدت هجمات المسلمين عليهم ، وباتت خطوط مواصلاتهم مع قاعدتهم فى دمياط مهددة بالانقطاع . وفى المنصورة حلت الكارثة بمقدمة الجيش الصليبي التى تعجل رجالها عبور النهر ، فأحاط بهم المسلمون وأجهزوا على معظمهم ، مما جعل لويس التاسع يحاول الانسحاب بسرعة ومعه بقية جيشه عائدين إلى دمياط .

وكانت عملية الانسحاب شاقة وخطيرة فى مثل تلك الظروف ،

إذ لحق المماليك بالصليبيين يطاردونهم حتى وقعت الواقعة الكبرى بين المسلمين والصليبيين عند فارسكور فى أبريل سنة ١٢٥٠ . وفى تلك الموقعة انتهى أمر الجيش الصليبي كله إلى القتل أو الأسر ؛ وكان من جملة الأسرى الملك لويس التاسع نفسه وكبار أمرائه المرافقين له . ولم يطل أسر لويس التاسع فى المنصورة ، إذ تم الإفراج عنه بعد دفع غرامة مالية كبيرة ؛ وعندئذ غادر الملك الفرنسى مصر ليقضى بضع سنوات فى الشام محاولا تنظيم صفوف الصليبيين والقيام بأعمال تمحو ما لحق به من عار على ضفاف النيل(١).

* * *

وثمة أهمية خاصة لحملة لويس التاسع على مصر ، هى أن أحداث هذه الحملة جاءت مصحوبة بتطور داخلى خطير أدى إلى زوال دولة الأيوبيين وقيام دولة المماليك فى حكم مصر والشام . والواقع أن المماليك أحسوا بأهمية الدور الذى نهضوا به فى تخليص مصر من خطر لويس التاسع وحملته ، فازدادوا نفوذاً وسطوة

(١) للوقوف على التفصيلات انظر : سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٨٤ — ١١٠٣ .

عقب موقعتى المنصورة وفارسكور ؛ الأمر الذى مكنهم من قتل تورانشاه — بن الصالح أيوب ووريثه — والاستيلاء على زمام الحكم فى مصر .

وسرعان ما أثبت المماليك أنهم قادرون على القيام بدورهم كاملا فى حماية الوطن العربى فى الشرق الأدنى ضد الأخطار الكبرى التى هددته منذ منتصف القرن الثالث عشر . وقد أتى الخطر الأكبر من ناحية مغول هولاكو الذين لم يكتفوا بالاستيلاء على فارس وتدمير بغداد والقضاء على الخلافة العباسية فيها سنة ١٢٥٨ ؛ وإنما أخذوا يتطرقون إلى الشام بغية ابتلاعها ثم ابتلاع مصر هى الأخرى .

ولايخفى علينا أن مغول فارس كانوا وثنيين عندئذ ، الأمر الذى جعل الصليبيين فى الشرق الأدنى ينظرون إليهم وإلى حركتهم التوسعية نظرة رضا وأمل ، لعلهم يعتنقون المسيحية فى يوم قريب ، وعندئذ تصبح تلك القوة الكبرى أداة سهلة تمكن الصليبيين من تحقيق مشروعاتهم فى الشرق الأدنى على حساب أهل البلاد من المسلمين .

ولكن مصر التى أخذت على عاتقها فى ذلك الدور من أدوار

الحروب الصليبية مهمة الدفاع عن الكيان العربى فى الشرق الأدنى ، لم تسكت عن تهديد المغول وتوغلهم فى الشام ؛ فتمكن قطز سلطان المماليك من إنزال ضربة قاصمة بالمغول فى موقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ ، فقتل معظمهم وفر الباقون « وولوا الأدبار لايلوون على شيء » على قول المؤرخ أبى المحاسن .

وإذا كان مغول فارس لم يكفوا بعد ذلك عن تهديد بلاد الشام بين حين وآخر ، فإن سلاطين المماليك فى مصر وقفوا لهم بالمرصاد وحالوا بينهم وبين مايشتهون . ولكن خطر المغول لم يكن الخطر الوحيد الذى هدد الوطن العربى فى الشرق الأدنى فى تلك الحقبة ؛ إذ ظل الصليبيون قابعين فى الشام يتربصون بأهل البلاد الدوائر ويحتلون أرضا عزيزة على كل عربى . لذلك وضع سلاطين المماليك فى مصر لأنفسهم سياسة خارجية واضحة تتلخص فى تطهير أرض الشام من الدخلاء الغاصبين وتأمين العرب فى أوطانهم وبلادهم . وفى سبيل تنفيذ هذه السياسة ضحت مصر بجميع طاقاتها البشرية ، والمادية ، فكانت الجيوش والحملات تخرج منها مرة بعد أخرى لمنازلة المغول حينا ومحاربة الصليبيين أحيانا .

والملاحظ أن الصليبيين أنفسهم فى بلاد الشام كانوا قد بلغوا

درجة واضحة من التفكك والانحلال فى النصف الأخير من القرن الثالث عشر . وعلى الرغم من أنهم فقدوا كثيرا من حصونهم وممتلكاتهم عندئذ ، إلا أنهم ظلوا يحتفظون بثلاث مدن كبرى هى أنطاكية وطرابلس وعكا ، فضلا عن عدد كبير آخر من المدن والحصون . وقد بدأ السلطان الظاهر بيبرس حربه الشاملة ضد الصليبيين سنة ١٢٦٥ فاستولى على عدد كبير من المدن والحصون والمعاقل الصليبية بالشام ؛ حتى توج أعماله الحربية ضد الصليبيين بالاستيلاء على أنطاكية سنة ١٢٦٨ .

ولا تخفى علينا أهمية عودة أنطاكية إلى أحضان أصحابها العرب إذ كانت هذه المدينة مركزا لإمارة صليبية كبرى هى ثانى إمارة أسسها الصليبيون فى الشرق الأدنى عند نهاية القرن الحادى عشر ، فجاء ضياعها من قبضة الصليبيين دليلا آخر على تعذر بقاء الدخلاء فى الشام . ثم إن استيلاء المسلمين على أنطاكية كان له أثره فى رفع روحهم المعنوية وتشجيعهم على مواصلة الجهاد لطرد الغزاة الغربيين نهائيا من بلاد الشام . وتشير المراجع إلى كثرة أسرى الصليبيين فى أنطاكية حتى بلغوا مائة ألف أسير ، وإلى وفرة الغنــائم حتى « قسمت النقود بالطاسات » على المجاهدين .

والواقع أن جهود بيبرس ضد الصليبيين بالشام كانت الحلقة الأولى فى المعركة الختامية التى انتهت بتطهير أرض الشام من الدخلاء الغاصبين . ولم يلبث السلطان المنصور قلاوون أن استأنف سياسة الجهاد بنفس القوة والإيمان ، فوجه جيشاً من أربعين ألف فارس ومائة ألف من المشاة ضد طرابلس سنة ١٢٨٩ ؛ « وضايقها مضايقة شديدة » بعد أن نصب حولها آلات الحصار وأخذ النقابون ينقبون أسوارها . وقد حاول الصليبيون بالشام أن يتناسوا ما بينهم من خصومات ويقوموا بمحاولة لإنقاذ طرابلس ، ولكن جهودهم باءت بالفشل ، واستطاع قلاوون وجنوده الاستيلاء على المدينة فى ٢٦ أبريل سنة ١٢٨٩ . ولم يتمكن من النجاة من الصليبيين فى طرابلس سوى قلة قليلة ، وهؤلاء فروا فى المراكب . ومهما يكن من أمر ، فإنه لم يتبق للصليبيين — بعد سقوط طرابلس — سوى مدينة عكا ، فضلا عن بعض المراكز الصغرى الأقل أهمية مثل صيدا وصور وعثليث . وإذا كان الموت لم يشأ أن يمهل السلطان قلاوون ليحقق أمنيته فى طرد آخر البقايا الصليبية من الشام ، فإن ابنه السلطان الاشرف خليل تعهد بإتمام الرسالة حتى نجح فى الاستيلاء على عكا فى مايو سنة ١٢٩١ .

وكانت عكا آخر مدينة كبرى باقية للصليبيين بالشام ، فضلا عن أنها غدت مركز مملكة بيت المقدس الصليبية منذ استيلاء المسلمين على بيت المقدس ؛ ولذلك أدرك الصليبيون أن ضياعها يعنى نهاية عهدهم بالشام ، فحاولوا صرف الأشرف خليل بن قلاوون عن قصده . ولكن السلطان الأشرف صمم على تنفيذ غرضه فحشد جيشاً كبيراً قدره المؤرخون بستين ألفاً من الفرسان ومائة وستين ألفاً من المشاة ، واجتمع ذلك الجيش الضخم أمام عكا فى أوائل أبريل سنة ١٢٩١ . ولم يجد الصليبيون قوة قريبة يستنجدون بها سوى قبرس ، فأتى ملك قبرس لنجدتهم فى عكا ومعه قدر لا بأس به من المحاربين والإمدادات والمؤن . ولكن كل هذه الإجراءات لم تكف لصد المسلمين الذين نجحوا فى اقتحام عكا فى مايو سنة ١٢٩١ ؛ وعندئذ وجد الصليبيون أنفسهم داخلها ولا عاصم لهم : فالمسلمون أمامهم والبحر من ورائهم . وكان أن هرع بعض الصليبيين إلى السفن الراسية فى ميناء عكا ، ولكن السفن لم تتسع لطالبي النجاة بأرواحهم ، فغرق بعضها فى البحر بسبب كثرة الحمولة .

ولم يكن منتظرا أن تتمكن بقية المعاقل الصليبية الباقية

بالشام من الثبات ، فاسترد المسلمون مدينة صور وغيرها من البقايا الصليبية فى سهولة . وبذلك زالت دولة الصليبيين نهائيا بالشام ، وزال أمر تلك الجموع من الغزاة الغربيين ؛ وعادت بلاد الشام لا يقطنها إلا أبناؤها الأصليون ولا يتمتع بخيراتها إلا أصحابها الحقيقيون .

الغرب الأوربى

وسياسة الحصار الاقتصادى

إذا كان بعض المؤرخين الغربيين المحدثين قد اعتبروا الحركة الصليبية حركة استعمارية ضخمة قام بها الغرب الأوربى فى العصور الوسطى للتسلل إلى باطن الوطن العربى ، فإننا نضيف إلى ذلك أن الاستعمار أثبت دائما أنه لايتعلم وأن أساليبه لم تتغير على مر العصور .

ذلك أن الاستعمار يلجأ إلى استخدام القوة والعنف لسلب أصحاب الحق حقهم ؛ فإذا فشل أسلوب القوة لجأ الاستعمار إلى سياسة الخنق الاقتصادى محاولا أن يؤثر فى كيان الأحرار وأن يفت فى عضدهم . هذا هو الأسلوب الذى لجأ إليه الاستعمار فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر أيام المعركة الصليبية ؛ وهذا هو الأسلوب نفسه الذى لجأ إليه الاستعمار بعد ستة قرون — أى فى القرن العشرين — أيام معركة السويس . وفى كلتا الحالتين باء الاستعمار بالفشل والهزيمة لأن أسلوب الضغط لا يجدى مع المؤمنين الأحرار .

والواقع أن الغرب الأوربى لم يكد يسمع نبأ استيلاء

المسلمين على عكا سنة ١٢٩١ وطرد آخر البقايا الصليبية من الشام حتى ثارت ثائرته وجن جنونه ، فأخذ يفكر فى فرض حصار اقتصادى على شواطىء مصر والشام ليحرم دولة المماليك من نشاطها التجارى الواسع الذى هو أساس قوتها ومصدر ثروتها . والمعروف أن غزوات المغول فى القرن الثالث عشر أدت إلى تعطيل طرق التجارة الآسيوية بين الشرق والغرب ، ولم يبق آمنا من هذه الطرق سوى طريق مصر والبحر الأحمر ؛ مما مكن المماليك من احتكار تجارة الشرق الأقصى والحصول على ثروة طائلة مكنتهم من بناء قوة حربية ضخمة .

كذلك يلاحظ أن أى بلد فى العالم — وبخاصة فى العصور القديمة والوسطى — كان لايمكنه أن يكفى نفسه بنفسه ؛ وأن طبيعة الحياة الاقتصادية الدولية اعتمدت على أن يقوم كل بلد بتصدير الفائض من إنتاجه واستيراد ما ينقصه من مواد أولية وغير أولية . وقد دأبت مصر فى عصر الحروب الصليبية بالذات على استيراد كثير من المواد الأساسية اللازمة لصناعة السفن — مثل الحديد والخشب والكبريت والقار — فضلا عن بعض المواد الغذائية مثل القمح والزيوت وغيرها . هذا كله بالإضافة إلى الرقيق الأبيض الذى كان الدعامة الكبرى التى قام عليها

نظام المماليك فى مصر ؛ والذى كان يستورد من بلدان غرب آسيا وجنوب أوربا .

ومهما يقل عن أن الصليبيين أخذوا يحاولون تطبيق سياسة الحصار الاقتصادى على مصر منذ منتصف القرن الثالث عشر ، فإنه من الواضح أن غرب أوربا لم يتخذ خطوات فعالة فى هذا الصدد إلا بعد استيلاء المسلمين على عكا سنة ١٢٩١ وطرد آخر البقايا الصليبية من الشام . ذلك أن البابا نيقولا الرابع أراد — عقب سقوط عكا — أن يستثير الغرب الأوربى للقيام بحملة صليبية كبرى جديدة ؛ ولما وجد تراخيا وعدم استجابة لمشروعه ، أصدر قراراً بابويا سنة ١٢٩٢ بتوقيع عقوبة الحرمان على كافة المدن والجمهوريات والدول المسيحية التى تتعامل تجارياً مع المماليك . وجدير بالذكر أن هذا المرسوم البابوى حرم تصدير الرقيق والخيول وبعض المواد الأولية كالحديد والأخشاب والكبريت والقار إلى مصر . وقد أضاف البابا بونيفيس الثامن سنة ١٢٩٩ إلى المواد السابقة القمح والزيت والنبيذ ، وكانت مصر تستوردها جميعاً فى تلك العصور.

على أن هذه القرارات البابوية التى قصد بها فرض حصار اقتصادى على مصر ، كان من الصعب تنفيذها مادامت البابوية

لاتمتلك قواعد صليبية فى شرق حوض البحر المتوسط تمكنها من مراقبة شواطىء مصر والشام ويتخذها الغرب الأوربى مراكز ثابتة يهدد منها تجارة المسلمين وبخاصة فى مصر والشام. هذا فضلا عن ضرورة وجود قوة بوليسية بحرية تمكن البابوية من مراقبة شواطىء مصر للتأكد من أن الجمهوريات الإيطالية ذات المصالح الاقتصادية الكبرى مع مصر قد احترمت قرار المقاطعة .

أما عن الخطوة الأولى فيلاحظ أن جزيرة قبرس قامت فيها أسرة حاكمة صليبية منذ أواخر القرن الثانى عشر — أى منذ أيام الحملة الصليبية الثالثة وريتشارد قلب الأسد . وقد أخذت هذه الأسرة الحاكمة فى جزيرة قبرس — وهى أسرة لوزجنان — على عاتقها مهمة مساندة الصليبيين بالشام طوال القرن الثالث عشر ، حتى إذا ما استولى المسلمون على عكا سنة ١٢٩١ وتم طرد آخر البقايا الصليبية من الشام ، عندئذ غدت جزيرة قبرس تحت حكم ملوكها من آل لوزجنان أكبر مركز للصليبيين بالشرق . ومن هذا المركز المطل على شواطىء مصر والشام وآسيا الصغرى استمرت الذيول الرئيسية للحركة الصليبية فى الشرق الأدنى فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

وأما عن الخطوة الثانية الخاصة بضرورة إنشاء قوة بوليسية بحرية تمكن البابوية من مراقبة شواطىء مصر ، فإن هنرى الثانى لوزجنان ملك قبرس تقدم فى أوائل القرن الثالث عشر بمشروع صليبي هام إلى البابا كلمنت الخامس ، طالب فيه بإنشاء قوة صليبية دولية تقوم بفرض حصار بحرى على شواطىء مصر والشام لمدة عامين أو ثلاثة ، بشرط أن تكون هذه القوة مستقلة تماما عن الجمهوريات الإيطالية التى تشكك هنرى الثانى فى ولائها للصالح الصليبي. وقد رأى الملك هنرى لوزجنان أن ذلك الحصار كفيل بإضعاف دولة المماليك إلى درجة تجعلها عاجزة عن مقاومة حملة صليبية تنزل بأرض مصر نفسها ؛ حتى إذا ما تم ذلك أصبح فتح الشام والاستيلاء على بيت المقدس أمرا هيناً .

والواقع أن هنرى الثانى ملك قبرس لم يكن مبالغا فى تفكيره ولم يخطىء فى إساءة بالظن بالجمهوريات الإيطالية التجارية ، لأن البندقية نفسها لم تستطع صبرا على قطع علاقاتها التجارية مع سلطنة المماليك وأرسلت مبعوثا إلى البابا كلمنت السادس تشرح له أن حياتها متوقفة على نشاطها التجارى وأن منعها من التجارة مع مصر بالذات عاد عليها بالخسارة والضعف ، الأمر الذى جعلها تلتمس من البابا السماح لها باستئناف علاقاتها التجارية مع دولة

المماليك . وكان أن استجاب البابا للرجاء وسمح للبندقية بالتجارة في غير البضائع المحظورة وذلك لمدة خمس سنوات تبدأ من سنة ١٣٤٤ .

ومهما يكن من أمر ، فإن جزيرة قبرس وملوكها حملوا لواء الحرب الصليبية في الشرق الأدنى في القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وإذا كان ملوك قبرس الأوائل لم يستطيعوا القيام بعمل إيجابي ضد المسلمين في الشرق الأدنى ؛ فإن الملك بطرس الأول لوزجنان قام بحملة صليبية كبرى على الإسكندرية سنة ١٣٦٥ .

وقد مهد الملك بطرس لحملته بالقيام برحلة طويلة في غرب أوربا ، جمع فيها ما استطاع جمعه من السفن والرجال والمال والعتاد ؛ حتى إذا ما اكتملت استعداداته دهم الإسكندرية في يوم جمعة والمسلمون في المساجد . وكان أن استطاع الصليبيون اقتحام الإسكندرية في غير صعوبة ، فدمروا البيوت والمساجد والخانات ، ونهبوا الأسواق والمتاجر ، واعتدوا على النساء والبنات ، حتى لقد بلغ من وحشيتهم أنهم كانوا يقتلون الطفل على صدر أمه ثم يذبحونها بعد ذلك .

غير أن الصليبيين لم يستطيعوا الاحتفاظ بالإسكندرية

طويلا ، فبعد أن قضوا بالإسكندرية ثلاثة أيام تعد من أسوأ الأيام التى مر بها الثغر فى تاريخه الطويل ، أسرعوا بالرحيل بعد أن أتوا على كل ما بالإسكندرية من « صامت وناطق » . وربما كان السبب فى إسراع الصليبيين بالرحيل أنهم أحسوا باقتراب الجيش المصرى الذى أسرع من القاهرة لتخليص الإسكندرية من قبضة الغزاة . ويقال إن الصليبيين أخذوا معهم عند جلائهم عن الإسكندرية خمسة آلاف أسير ، فضلا عن قدر ضخم من البضائع المنهوبة ، حتى ضاقت سفنهم بمن فيها وثقلت بما عليها فاضطر الصليبيون إلى إلقاء بعض حمولتها فى البحر لتخف وتستطيع مواصلة رحلتها .

ثم إن ملوك قبرص لم يكتفوا بمهاجمة الإسكندرية وغيرها من الموانى الإسلامية فى شرق حوض البحر المتوسط مثل طرابلس ، وإنما استغلوا موقع جزيرتهم فى شن حرب دائبة على ذلك النفر من التجار الأوربيين الذين استمروا يتاجرون مع مصر والشام ؛ فكانت سفن قبرص تتربص لهم فى عرض البحر فى طريقهم إلى مصر ومنها ، وتفتك بهم أشد فتك . وهكذا استمر أهل قبرص « يفسدون فى البحر » على قول المؤرخ العينى ، ويقطعون الطريق على المراكب الآتية إلى دمياط

أو الاسكندرية ؛ علماً منهم بأن سياسة الحصار الاقتصادى هى أقوى سلاح لإضعاف مصر والشام بعد أن فشلت محاولة الغزو الحربى .

ولم تستطع مصر احتمال تلك السياسة العدوانية من جانب قبرس وملوكها ، بعد أن غدت الجزيرة مركزاً للعدوان على الموانى الإسلامية — ليس فقط فى مصر والشام — بل أيضاً فى آسيا الصغرى حيث يوجد الأتراك . وشاءت الظروف أن اعتلى عرش دولة المماليك سنة ١٤٢٢ سلطان من أقوى السلاطين وأكثرهم طموحا — هو السلطان برسباى — الذى صمم على وضع حد لعدوان قبرس وملوكها والقضاء على ذلك النفر من القراصنة الذين « يفسدون فى البحر » .

وكان أن أرسل برسباى ثلاث حملات لغزو قبرس ، الأولى سنة ١٤٢٤ والثانية سنة ١٤٢٥ والثالثة سنة ١٤٢٦ . وقد استطاع الجيش المصرى فى الحملة الأخيرة أن ينزل الهزيمة ساحقة بالملك جانوس ملك قبرس فى موقعة خيروكيتا ، فأخذت السيوف تعمل فى صفوف القبارسة « وأسنة الرماح تطعن فى أعضائهم ، فصارت كثرتهم قلة وقوتهم ضعفاً » . وعندما رأى الملك جانوس ماحل بجيشه حاول الفرار فلم يتمكن بسبب ما أصابه من

جروح ، فأسره المسلمون وعادوا به مع جموع غفيرة من الأسرى إلى مصر .

وتصف المراجع المعاصرة كيف استقبل فى القاهرة الأبطال الذين غزوا قبرس ؛ فشق موكبهم شوارع القاهرة فى نظام باهر « يذهل العقل » ؛ على قول المؤرخ أبى المحاسن . أما الأسرى فقد ساروا على الأقدام ناكسى الرءوس ومعهم ملكهم جانوس ممتطياً « بغلا أعرج » . وقد ظل ملك قبرس أسيراً فى قلعة الجبل مدة من الزمن ؛ ولم يطلق سراحه بعدذلك إلا بشروط خاصة وبعد دفع فدية كبيرة من المـال .

ومنذ ذلك الوقت — وحتى أوائل القرن السادس عشر — غدت قبرس تابعة لمصر ، ومن « جملة بلاد السلطان » على قول المقريزى . وبذلك انهارت القلعة التى اتخذها الغرب الأوربى فى أواخر العصور الوسطى قاعدة لتهديد الوطن العربى فىالشرق الأدنى ؛ كما استطاعت مصر أن تحطم الحصار الذى فرضه الغرب عليها فى تلك العصور وأن تخرج من معركة الحصار الاقتصادى قوية ظافرة مرفوعة الرأس .

* * *

على أنه يلاحظ أن سياسة الحصار الاقتصادى التى فرضها الغرب الأوربى على مصر والشام فى عصر الحروب الصليبية لم تقتصر على حوض البحر المتوسط ، وإنما أراد أصحاب المشاريع الصليبية فى أواخر العصور الوسطى أن يمدوا ذلك الحصار إلى البحر الأحمر ليكتمل تطويق مصر اقتصادياً . ولكن قطع تجارة الشرق الأقصى عن البحر الأحمر كان يستلزم أمرين : الأول هو البحث عن طريق آخر غير طريق البحر الأحمر تسلكه تجارة الشرق إلى أوربا دون أن تمر بمصر والشام اللذين تحكمها سلطة المماليك ، والثانى محالفة إحدى القوى غير الإسلامية الواقعة قرب مدخل البحر الأحمر من ناحية الجنوب لتساعد الصليبيين الأوربيين فى قطع التجارة الواردة إلى دولة المماليك عن طريق ذلك البحر .

أما عن الأمر الأول ، فإن «جنوا» شرعت فعلا فى البحث عن طريق آخر جديد يوصلها إلى الهند ، حتى أدى بها البحث إلى كشف بعض أجزاء الساحل الغربى لأفريقية — فى مواجهة جزر كناريا — مما يعد مقدمة للجهود التى أدت إلى كشف طريق رأس الرجاء الصالح فيما بعد . هذا إلى أن أصحاب المشروعات الصليبية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر

تناولوا فى مشروعاتهم فكرة البحث عن طريق آخر غير طريق مصر للحصول على غلات الشرق الأقصى . ومن ذلك المشروع الذى قدمه أحد الرهبان الفرانسسكان إلى البابا نيقولا الرابع والذى طالب فيه بتحويل تجارة الهند عن البحر الأحمر ومصر إلى الخليج وفارس ثم شمال العراق وأرمينية الصغرى على الشاطىء الشرقى لآسيا الصغرى ؛ ومن هناك تقوم السفن الأوربية بنقل المتاجر الآسيوية إلى الغرب .

وهكذا لم تلبث أن ظهرت أهمية عدة طرق جديدة للحصول على غلات الشرق الأقصى وتوابله — غير طريق مصر والمماليك . وكان أول هذه الطرق وأهمها طريق قبرس وموانى أرمينيا الصغرى وشمال العراق وتبريز ؛ وثانيها طريق البحر الأسود فموانى طرابيزون وسينوب ومنها براً إلى الفرات وتبريز ؛ وثالثها — وهو أضعفها — طريق جنوب روسيا فالقوقاز فالشرق الأقصى . وقد أدى الإقبال على الطريق الأول إلى انتعاش ميناء إياس على الشاطىء الجنوبى لآسيا الصغرى . ولا شك فى أن صداقة الأرمن مع المغول ساعدت على تأمين هذا الطريق وتنشيطه .

هذا عن الاتجاه الأول الخاص بالبحث عن طريق جديد

غير طريق مصر للحصول على تجارة الشرق . أما عن الاتجاه الثانى الخاص بالبحث عن حليف للصليبيين يساعدهم فى إحكام الحصار الاقتصادى على مصر عن طريق إغلاق البحر الأحمر من ناحية الجنوب ، فإن الصليبيين لم يجدوا أفضل من الحبشة ، وهى الدولة التى حكمها ملوك مسيحيون أمكن الاتفاق معهم على تطويق بلاد المسلمين فى الشرق الأدنى من ناحيتى الجنوب والشمال . لذلك حرصت البابوية على تقوية صلتها بالحبشة ، فأرسلت الرسل والسفراء سنة ١٣٠٥ ثم سنة ١٣١٦ إلى ملوك الحبشة ، كما أرسل ملك فرنسا سفارة إلى ملك الحبشة سنة ١٣٣٨ .

ويبدو أن هذه الاتصالات المتكررة بين الغرب الأوربى من ناحية وملوك الحبشة المسيحيين من ناحية أخرى نجحت فى استثارة ملوك الحبشة ضد المسلمين وجذبهم داخل دائرة الحركة الصليبية . من ذلك أن ملك الحبشة لم يكد يسمع خبر إغارة بطرس لوزجنان ملك قبرس على الإسكندرية سنة ١٣٦٥ حتى بادر إلى إعداد جيش ضخم ، وأعلن أنه سيهاجم مصر من ناحية الجنوب ، وبذلك يتم تطويقها اقتصادياً وحربياً . ولكن لم تلبث أن جاءت الأخبار إلى ملك الحبشة بانسحاب بطرس

لوزجنان من الإسكندرية ، وعندئذ عاد الأحباش إلى بلادهم بعد أن فقدوا كثيراً من رجالهم .

ومع ذلك فإن ملوك الحبشة لم يتخلوا عن فكرة حصار مصر ومهاجمتها من ناحية الجنوب ، بدليل أن إسحاق الأول ملك الحبشة (١٤١٤ — ١٤٢٩) أراد القيام بحملة صليبية كبرى ضد مصر ، فيدهمها من ناحية الجنوب ؛ وأرسل إلى ملوك أوربا سنة ١٤٢٨ يدعوهم لمساعدته فى القيام بهجوم على مصر من ناحية الشمال . وتروى المراجع أن رسول الملك إسحاق إلى ملوك غرب أوربا كان تاجراً فارسيا مسلماً اسمه على نور الدين التبريزى . وقد نجح هذا الرسول الخائن فى إبلاغ رسالة ملك الحبشة إلى حكام الغرب الأوربى ؛ وتم الاتفاق فعلا على خطة مزدوجة لمهاجمة مصر من ناحيتى الجنوب والشمال . ولكن حدث عند عودة التبريزى بعد ذلك إلى الحبشة عن طريق مصر أن اكتشف أمره ، فقتله السلطان برسباى جزاء خيانته .

وعلى الرغم من مقتل التبريزى فإن دعوة ملك الحبشة صادفت قبولا من بعض ملوك أوربا . من ذلك أن ألفونس الخامس ملك أرغونة شرع فى إعداد أسطوله لمهاجمة شواطىء

مصر ، وأرسل سفارة إلى ملك الحبشة يؤكد فيها حسن نيته عن طريق عقد مصاهرة بين الطرفين . كذلك أظهر ملك فرنسا اهتماماً كبيراً بذلك المشروع على الرغم من انشغال فرنسا عندئذ بحرب المائة عام ضد انجلترا .

ثم كان أن نجح فاسكو دى جاما البرتغالى فى كشف طريق رأس الرجاء الصالح (١٤٩٧ — ١٤٩٩) ؛ فجاء ذلك ضربة قاضية على المكانة التجارية الفريدة التى ظلت دولة المماليك تتمتع بها طويلا . وفى الحرب التى نشبت بعد ذلك بين البرتغاليين والمماليك ، أسهمت دولة الحبشة بسهم وافر فى مساعدة البرتغاليين . والواقع أن الاتصالات الودية بين البرتغاليين والأحباش بدأت فعلا قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ؛ ولكن هذه الاتصالات لم تقو إلا بعد اكتشاف ذلك الطريق ، فأرسلت هيلانة ملكة الحبشة مبعوثا فى سفارة سنة ١٥١٠ إلى ملك البرتغال لمفاوضته فى عقد اتفاقية ضد المماليك فى مصر . ويهمنا من أمر الرسالة التى أرسلتها ملكة الحبشة إلى ملك البرتغال أنها طفحت بالروح الصليبية الواضحة ؛ حتى أنها لقبت ملك البرتغال بلقب « قاهر المسلمين » ؛ كما أبدت

رغبتها فى أن يمدها البرتغاليون بالسفن اللازمة لقفل البحر الأحمر عند الطور شمالا وباب المندب جنوباً .

* * *

وأخيراً ، فإنه يلاحظ أن هذه المشروعات الصليبية الخاصة بالحصار الاقتصادى على مصر مصحوبة بفكرة أخرى طالما نادى بها دعاة الحروب الصليبية ، هى تجويع مصر والقضاء على أهلها بتحويل مجرى النيل فى الحبشة . وهناك فى المراجع العربية مايشير إلى أن ملوك الحبشة هددوا أكثر من مرة بتحويل مجرى النيل فى بلادهم لتجويع مصر . وقد ظلت هذه الفكرة تراود عقول المتحمسين للحروب الصليبية حتى نهاية العصور الوسطى ، فأرسل ألفونس ملك أرغونه إلى ملك الحبشة سنة ١٤٥٠ يطلب منه أن يعمل على تحويل مجرى النيل ومهاجمة مصر من ناحية الجنوب فى الوقت الذى يقوم ألفونس بغزو بلاد الشام . ولما اشتد النزاع بين المماليك والبرتغاليين عقب كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، أرسل البوكرك — قائد الأسطول البرتغالى — إلى ملك البرتغال يطلب إمداده بعدد من العمال المدربين على قطع الصخور وحفر الأرض للعمل فوراً على تحويل مجرى النيل ، مما يدل على اعتقاد الأوربيين

والأحباش جميعاً فى إمكان تنفيذ ذلك المشروع[1]

ومهما يكن من أمر ، فإن الأيام سرعان ما أثبتت أن أوهام الصليبيين لم تكن إلا أضغاث أحلام ؛ وأن فكرة الحصار الاقتصادى أو فكرة تحويل مجرى النيل لم تنجح أمام قوة شعب يؤمن بالله ويؤمن بحقه فى حياة حرة كريمة .

(١) للوقوف على التفصيلات انظر : سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ، ص ١٢٠٩ — ١٢١٤ .

الحروب الصليبية
في شمال أفريقية وأوربا

لو كانت الحروب الصليبية ـ كما ظن البعض في الماضي ـ مجرد حركة لاسترداد الأراضي المقدسة من المسلمين وحماية حجاج الغرب القاصدين إلى تلك الأراضي ؛ لاقتصر ميدانها على بلاد الشام . ولكن الحركة الصليبية كانت أوسع من ذلك بكثير ، إنها كانت المنفس الذى نفس به الغرب الأوربي في العصور الوسطى عن حماسته الدينية من ناحية ، وعن رغبته في التوسع والاستعمار من ناحية ثانية ، وعن ثورته على الأوضاع الفكرية والاجتماعية والاقتصادية التي سادت غرب أوربا من ناحية ثالثة . وعلى ذلك لم تكن الحركة الصليبية محدودة بميدان معين أو ببلد واحد ، وإنما كان من الممكن أن تشتعل نارها في كل بلد يعثر فيه الصليبيون الغربيون على مسلمين . وهكذا صارت بلاد المسلمين في شمال أفريقية وآسيا الصغرى وأسبانيا ميادين للمعركة الصليبية ؛ وذلك بالإضافة إلى الميادين المعروفة في الشام ومصر والعراق والبحرين الأحمر والمتوسط .

والواقع أن شمال أفريقية ظل يسترعي نظر الصليبيين الغربيين

منذ وقت مبكر ، حتى كانت سنة ١٢٧٠ فقام لويس التاسع بحملته الصليبية — المعروفة بالثامنة — واختار تونس بالذات هدفا لتلك الحملة . وحتى اليوم لا يعرف التاريخ سببا واضحا لاتجاه لويس التاسع وحملته إلى تونس ، لاسيما وأن أمير تونس فى ذلك الوقت — وهو أبو عبد الله محمد المستنصر بالله الحفصى — كانت تربطه علاقات طيبة بالحكام المسيحيين فى أوربا ، حتى لقد اتهمه المقريزى بميوله للفرنج وبأنه « لا يصلح أن يلى أمور المسلمين ». وإذا كانت حملة لويس التاسع على تونس قد باءت بالفشل نتيجة لحرارة الجو وتفشى الأمراض فى معسكر الصليبيين ، حتى أن الملك لويس نفسه مات فى تونس فى أغسطس سنة ١٢٧٠ ؛ فليس معنى ذلك أن شمال أفريقية غاب عن فكر الصليبيين ومشاريعهم فى أواخر العصور الوسطى .

من ذلك أن أحد أصحاب المشروعات الصليبية — وهو رومان لول — أوصى بالقيام بحملة صليبية تسلك طريق شمال أفريقية للوصول إلى مصر والشام . بل إن رومان لول هذا تعلم اللغة العربية وأجاد التفاهم بها ، فأراد أن يستغل السلاح فى التبشير بالمسيحية بين المسلمين فى شمال أفريقية ؛ وفعلا قام بمهمته التبشيرية الأولى فى شمال أفريقية سنة ١٢٩٢ . ولم يلبث

أن اتهم رومان لول فى بلاد الحفصيين بالشرك والحض على الكفر فحكم عليه بالإعدام ثم خففت هذه العقوبة إلى الطرد خارج البلاد . ولكن رومان لول لم يتعظ وعاد إلى شمال أفريقية سنة ١٣٠٧ لمعاودة الكرة ومحاولة نشر المسيحية بين المسلمين ، وبخاصة البربر . وفى تلك المدة نزل رومان فى مدينة بجاية بالجزائر ، حيث استطاع أن يتصل ببعض العلماء المسلمين ويطلب مناظرتهم فى موضوعات دينية . وكان أن ثار الرأى العام الإسلامى فى بجاية على أساليب ذلك المبشر ، فحكم عليه بالسجن ستة أشهر ، طرد بعدها من البلاد .

وهكذا ظل شمال أفريقية يحتل مكانة خاصة فى تفكير أصحاب المشروعات الصليبية حتى تجمع أسطول صليبي أسهمت فيه صقلية وبيزا وجنوا ؛ واستطاع هذا الأسطول الاستيلاء على جزيرة جربة الواقعة فى خليج قابس بشمال أفريقية . وكانت هذه الجزيرة تابعة عندئذ لأبى العباس أحمد المستنصر أمير بنى حفص فى تونس ؛ فلم يستطع الدفاع عنها واستولى عليها الصليبيون دون صعوبة سنة ١٣٨٨ .

ويبدو أن النجاح فى الاستيلاء على جزيرة جربة شجع جنوا على التفكير فى القيام بحملة صليبية أكبر ضد المسلمين

بشمال أفريقية ؛ وفى هذه الحالة كان لابد لجنوا من الاعتماد على مساعدة إحدى الدول الأوربية الكبرى . وكان أن تم الاتصال بين جنوا وفرنسا للقيام بحملة صليبية ضد تونس بالذات . ولا يوجد لدينا تعليل لاستئثار تونس بأطماع الأوربيين فى تلك الحقبة سوى أهمية موقعها التجارى ، مما جعل كثيراً من التجار الأوربيين — وبخاصة الإيطاليين — يترددون على سوسة والمهدية وسفاقس وقابس ، فضلا عن جزيرة جربة التى استولى عليها الأوربيون سنة ١٣٨٨ كما سبق أن أوضحنا . ثم إن موقع تونس المتوسط فى حوض البحر المتوسط ونشاطها التجارى جعل موانيها قواعد طيبة لكثير من قراصنة المسلمين الذين سلحوا سفنهم الخفيفة للإغارة على الأساطيل الإيطالية وغير الإيطالية أثناء سفرياتها من شرق حوض البحر المتوسط إلى غربه وبالعكس ونهب ما تحمله من بضائع وأموال . هذا فضلا عن اعتداء أولئك القراصنة أحيانا على شواطىء البلدان والجزر الأوربية فى حوض البحر المتوسط . والملحوظ أن قراصنة البربر لم يفرقوا بين أعمال القرصنة والجهاد ؛ فرأوا فى تلك الإغارات نوعا من أنواع الجهاد الدينى ضد المسيحيين ؛ بدليل أن الحفصيين أنفسهم عمدوا أحيانا إلى مساعدة

القراصنة وتشجيعهم . ولكن الجمهوريات الإيطالية التى اعتمدت فى حياتها على التجارة لم تستطع السكوت عن تلك الاعتداءات ، ولذلك اختار الجنوية أن يوجهوا حملتهم الصليبية سنة ١٣٩٠ ضد المهدية بوصفها أقوى قلاع تونس وأكبر مركز للقراصنة بشمال أفريقية فضلا عن أهمية مركزها التجارى .

وكان أن وافق شارل السادس ملك فرنسا على مشاركة الجنوية فى تلك الحملة التى اتجهت ضد المهدية فى صيف سنة ١٣٩٠ . ويروى ابن خلدون أن أخبار تحركات الصليبيين وصلت فى وقت مبكر إلى مسامع أبى العباس أحمد الثانى المستنصر أمير تونس ، فأرسل ابنه الأمير أبا فارس « يستنفر أهل النواحى ويكون رصدا للأسطول هناك » . ومع ذلك فقد استطاع الصليبيون النزول إلى الشاطىء دون مقاومة ، ومن ثم شرعوا مباشرة فى محاصرة المهدية . على أن الحصار استمر تسعة أسابيع دون أن يحقق الصليبيون أى نصر أو تقدم ؛ فلاهم نجحوا فى اقتحام المدينة ولا هم استطاعوا التغلب على الجيش القوى الذى حضر على رأسه أمراء شمال أفريقية لإنقاذ المهدية . هذا فى الوقت الذى اشتدت فيه حرارة الصيف وتناقصت المؤن فى معسكر الصليبيين ، فضلا عن أزمة مياه الشرب التى عانى

منها الصليبيون الشيء الكثير . ولم يسع الصليبيين تحت تأثير تلك الظروف سوى طلب الصلح والجلاء دون أن يحققوا هدفا واحداً من أهداف حملتهم ؛ مما جعل ابن خلدون يصف تلك الحملة بأنها جاءت فشلا للمسيحيين ونصراً لجيوش المسلمين .

وهكذا لم يسلم المغرب العربى من هجمات الأوربيين أواخر العصور الوسطى ، حتى قرر بعض المؤرخين أن الحروب الصليبية نقلت ميدانها من المشرق إلى المغرب فى القرن الخامس عشر بالذات . وقد تزعم حركة الهجوم على المغرب فى ذلك الدور الأسبانيون والبرتغاليون ، فنجح الأسبانيون فى احتلال أجزاء من ساحل الجزائر حصنوها وأقاموا فيها قلاعا لهم ، فى حين احتل البرتغاليون أجزاء من الساحل الغربى لأفريقية . وإزاء الهجمات الأوربية على بلاد المغرب لم يسع المغاربة سوى أن يسلحوا السفن لقطع الطريق على الأساطيل الأوربية والقيام بهجمات مضادة على شواطىء أوربا . وفى تلك الأعمال البحرية التى قام بها المغرب ضد القوى الاوربية فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر ، يذكر التاريخ أعمال عروج بن يعقوب الذى عرف باسم بربروس وأخيه خير الدين ،

وقد اشتدا فى مهاجمة السفن والثغور الأوربية بشكل أزعج الأوربيين .

وقد جاءت تلك الهجمات فى وقت استفحلت فيه قوة الأتراك العثمانيين وازداد خطرهم على الأجزاء الشرقية من أوربا . ولا شك فى أن اشتداد الحروب بين الأوربيين المسيحيين من ناحية وكل من العثمانيين والمغاربة المسلمين من ناحية أخرى ، واتخاذ هذه الحروب مسحة دينية واضحة ؛ كان من العوامل التى أدت إلى التقارب بين العثمانيين والمغاربة . وأخيراً لم يجد المغرب بدا من الدخول فى كنف الدولة العثمانية ، فاستولى العثمانيون على الجزائر سنة ١٥٢٩ ثم على تونس سنة ١٥٣٤ .

* * *

والواقع أن الشرق الأدنى شهد تطوراً خطيراً فى القرن الرابع عشر نتيجة لازدياد نفوذ العثمانيين واتساع دولتهم اتساعا سريعاً على حساب جيرانهم . وإذا كان العثمانيون قد غدوا القوة الإسلامية الكبرى فى آسيا الصغرى فى أواخر القرن الرابع عشر ، فإن ذلك جعل حركتهم التوسعية على حساب الدولة البيزنطية وغيرها من القوى المسيحية فى شرق أوربا تبدو فى نظر الأوربيين المعاصرين ذات مسحة دينية خطيرة ؛ حتى أن الرأى

الغالب فى التاريخ هو اعتبار الحملات التى أعدها الأوربيون فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر لوقف التوسع العثمانى فى شرق أوربا ، حملات صليبية قام بها الأوربيون لحماية شرق أوربا من حركة التوسع الإسلامية التى قام بها العثمانيون على حساب الشعوب المسيحية .

ذلك أن العثمانيين نجحوا فى العبور إلى القارة الأوربية فى الربع الأول من القرن الرابع عشر ، ومنذ ذلك الوقت لم يدخروا وسعا فى التوسع السريع على حساب المسيحيين فى شرق أوربا حتى استولوا على غاليبولى سنة ١٣٥٤ ثم على أدرنه سنة ١٣٥٧ . وهكذا أحاط العثمانيون بالقسطنطينية وقطعوا الصلة بينها وبين العالم الأوربى عند وفاة السلطان أورخان العثمانى سنة ١٣٥٩ .

وربما ظن الغرب الأوربى أن فى وجود امبراطورية الصرب ضماناً كافياً لوقف توسع العثمانيين فى شرق أوربا ؛ ولكن السلطان مراد الأول العثمانى استطاع أن يحطم ذلك الحاجز وأحرز انتصاراً على الصرب عند المارتزا سنة ١٣٧١ ، وبعد ذلك سقطت بلغاريا فى قبضة العثمانيين . وفى موقعة كوسوفو سنة ١٣٨٩ أحرز العثمانيون انتصاراً على الصرب وبذلك غدوا

سادة البلقان . وكان أن فزع الغرب الأوربى من جراء توسع العثمانيين على ذلك الوجه فى شرق أوربا ، فصدرت مراسيم بابوية سنة ١٣٩٤ — ١٣٩٥ لإعلان الحرب الصليبية ضد العثمانيين المسلمين . وسرعان ما أخذت الاستعدادات تجرى فى الغرب الأوربى للحملة الصليبية المنتظرة ، وهى الحملة التى شارك فيها الفرنسيون والألمان والإنجليز والمجريون ؛ فضلا عن أعداد كبيرة من المتطوعين وفدوا من بولندا وبوهيميا وإيطاليا وإسبانيا . وفى أواخر يوليو سنة ١٣٩٦ اجتمعت فى بودا الجيوش الصليبية التى بلغت عدتها أكثر من مائة ألف مقاتل ، وهو أكبر عدد من الصليبيين اشترك فى موقعة واحدة ضد المسلمين فى تاريخ الحروب الصليبية .

وقد استمر الصليبيون فى زحفهم بحذاء الدانوب يستولون على المدن التابعة للعثمانيين واحدة بعد أخرى ، ويقتلون من فيها من أتراك أولا عن آخر . وأخيراً وصل العثمانيون إلى مدينة نيقوبوليس — أقوى المعاقل العثمانية على الدانوب — فوقفوا عاجزين أمامها لحصانتها . ولم يلبث أن ظهر الجيش العثمانى تحت قيادة السلطان بايزيد ، وعندئذ لم يقو الصليبيون

على الصمود أمام العثمانيين ، وحلت بهم الهزيمة ساحقة فى أواخر سنة ١٣٩٦ .

وكانت حملة نيقوبوليس آخر حملة صليبية كبيرة ذات صبغة دولية ، مما مكن العثمانيين من تحقيق سيطرتهم الفعلية على معظم البلقان . وقد حاول الأوربيون أن يستفيدوا من الضربة التى أنزلها تيمورلنك بالدولة العثمانية فى موقعة أنقرة سنة ١٤٠٢ فدعت البابوية لحملة صليبية جديدة تحرر البلقان من الحكم العثمانى . ولكن السلطان مراد الثانى العثمانى كان أسرع فى العمل ، فأنزل هزيمة كبرى بالهنغاريين وحلفائهم عند فارنا سنة ١٤٤٤ . وبذلك فشلت أيضا تلك الحملة الصليبية التى دعا لها البابا وناب عنه فيها أحد الكرادلة ، فضلا عما أحاط بها من شعور دينى واضح .

وأخيرا سقطت القسطنطينية فى قبضة العثمانيين سنة ١٤٥٣ ، فاهتزت البابوية والعالم المسيحى الغربى لتلك الصدمة ؛ وحاول البابا بيوس الثانى سنة ١٤٦٣ أن يضع مشروع حملة صليبية كبرى على غرار الحملات الصليبية التى تحكى عنها كتب التاريخ . ولكن دعوة البابا ذهبت مع الريح ، إذ كان الغرب الأوربى على أبواب عصور جديدة وأخذ تيار النهضة يجرف الأوربيين

فرفضوا أن ينساقوا وراء البابوية ورجال الدين انسياقا أعمى لتحقيق أهداف صعبة لا تتناسب مع التضحيات الضخمة التي ظل الغرب الأوربي يتحملها قرونا طويلة دون ثمرة واضحة. وعندما وجد البابا بيوس الثاني نفسه وحيدا تلهب الحماسة قلبه وسط مجتمع لا يقدر شعوره، صمم على القيام بنفسه بالحملة الصليبية المزعومة . وكان أن جمع البابا عدة سفن وأبحر على رأسها، ولكن لم يلبث أن انفض بحارة السفن عنه، فمات ذلك البابا حزينا سنة ١٤٦٣ .

* * *

ولكن إذا كانت المعركة الصليبية قد انتهت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر برجحان كفة المسلمين في الشرق الأدنى؛ فإن نتيجة المعركة كانت عكسية في أسبانيا؛ حيث انتهى الأمر في نهاية القرن الخامس عشر بطرد المسلمين نهائيا من شبه الجزيرة الأسبانية . ولا يوجد تعليل لهذه الظاهرة سوى أن المسلمين في أسبانيا كانوا بعيدين عن قلب العالم الإسلامي ومركز حركة الجهاد؛ في الوقت الذي كانت أسبانيا قطعة لا تتجزأ عن القارة الأوربية؛ وكان المسيحيون فيها قريبين من البابوية ومن قلب العالم المسيحي الغربي، الأمر الذي جعل الكفتين غير متعادلتين.

والمعروف عن المسلمين فى أسبانيا أنهم لم يبسطوا سيطرتهم مطلقا على جميع شبه الجزيرة ، وانما ظلت أجزاء واسعة فى الشمال والغرب خارج نفوذهم . وفى تلك الأجزاء قامت دويلات مسيحية أهمها قشتاله وأرغونه وليون والبرتغال وغيرها ، وهى الدويلات التى انطلقت منها حركة مقاومة المسلمين والسعى لإخراجهم من شبه الجـــزيرة عندما اتضح ضعف دولتهم فى الأندلس .

وقد أخذت حركة التوسع المسيحى فى أسبانيا تسير بخطى سريعة على حساب المسلمين فى القرن الثالث عشر ؛ فلم يكد فرديناند الثالث ملك قشتاله يحقق الوحدة مع ليون سنة ١٢٣٠ حتى فتح قرطبة المقر السابق للخلافة الأموية بالأندلس سنة ١٢٣٦؛ وحول جامعها إلى كتدرائية . وفى سنة ١٢٤٤ استولى فرديناند الثالث على أشبيليه من المسلمين ، كما استولى على قادس وشريش سنة ١٢٥٠ ؛ وبذلك وصل إلى شاطىء المحيط الأطلسى ؛ فى حين استولى خليفته ألفونس العاشر على مرسية سنة ١٢٦٦ بمساعدة جيمس الأول ملك أرغونة . هذا فى الوقت الذى وصلت فيه البرتغال سنة ١٢٦٢ إلى حدودها الحديثة بعد أن انتزعت إقليم الغرب من المسلمين . وبذلك لم يبق للمسلمين

فى أسبانيا سوى مقاطعة غرناطة فى الجنوب ، حيث قدر لهم أن يعيشوا فترة أخرى بلغت قرنين ونصفا من الزمان .

وليس معنى ذلك أن المسلمين فى الأندلس استسلموا على طول الخط فى ذلك الدور الأخير من أدوار دولتهم ، فقد عبر أمير فاس مضيق جبل طارق على رأس جيش كبير وانضم إليه أمير غرناطة وأخذوا جميعاً يحاصرون طريف . ولكن ملك قشتاله ألفونس الحادى عشر أسرع لمواجهة ذلك الغزو سنة ١٣٤٠ ؛ ونجح فى إنزال هزيمة بالمسلمين والاستيلاء على بعض معاقلهم ، مما جعل أمير فاس ينسحب إلى أفريقية . وكان ألفونس الحادى عشر يطمع فى الاستيلاء على جبل طارق ليحول دون وصول إمدادات فى المستقبل من مسلمى أفريقية إلى إخوانهم فى غرناطة. ولكن انتشار الوباء الأسود فى أوربا سنة ١٣٥٠ شل حركة الحكام والمحكومين جميعا وحال دون تنفيذ ذلك المشروع .

ولم يلبث أن أدى توحيد قشتالة وأرغونة فى أواخر القرن الخامس عشر إلى زيادة الخطر المحدق بالمسلمين فى جنوب أسبانيا . ويبدو أن مسلمى غرناطة غرهم الهدوء النسبي الذى ساد الحدود الفاصلة بينهم وبين جيرانهم ، فانقسموا على أنفسهم ،

وبددوا جهودهم فى محاربة بعضهم بعضاً دون أن يعملوا حسابا للقوة المسيحية الموحدة التى قامت على حدودهم . وكان أن بدأ الهجوم المسيحى على غرناطة سنة ١٤٨١ فأخذت المدن والقلاع الإسلامية تتساقط واحدة بعد أخرى فى أيدى المسيحيين . وكان الأوربيون قد تعلموا من العرب استخدام البارود والأسلحة النارية ، فلجأ المسيحيون فى أسبانيا إلى طعن المسلمين بسلاحهم ، واستخدموا ذلك السلاح الجديد فى الاستيلاء على حصن لورة ثم لوشة من المسلمين . أما مالقة فقد قاومت مقاومة عنيفة بفضل شجاعة قائدها حامد الزغبي ، فلجأ المسيحيون إلى بث الألغام تحت أسوارها وحضرت إيزابلا بنفسها لتثير الشجاعة فى قلوب رجالها حتى نفدت الأقوات فى المدينة فاستسلمت للغزاة . وفى سنة ١٤٨٩ سقطت بسطة فى أيدى المسيحيين بعد أن ظلت تقاومهم فى شجاعة نادرة ستة أشهر . وبذلك لم يبق للمسلمين فى الأندلس سوى غرناطة التى ظلت تقاوم فى عناد حتى اضطرت إلى إلقاء السلاح قرب نهاية سنة ١٤٩١ ، بعد أن وجدت نفسها وحيدة وسط محيط من المسيحيين وبعد أن طال انتظارها لوصول النجدة المزعومة

من مماليك مصر أو سلاطين العثمانيين . وبذلك دالت دولة العرب في أسبانيا .

وهنا نؤكد أن تلك الحروب التي دارت بين المسلمين والمسيحيين في أسبانيا إنما كانت — باعتراف جمهرة المؤرخين — حلقة أخيرة في سلسلة الحروب الصليبية . ولا أدل على ذلك من أن البابوية كانت تبارك جهود المسيحيين في أسبانيا في حربهم ضد المسلمين ؛ كما أن تلك الحروب التي شنها المسيحيون في الغرب لم يشترك فيها الأسبان وحدهم ؛ وإنما شارك فيها أيضاً متطوعون من مختلف جنسيات غرب أوربا كالسويسريين والإنجليز والألمان ... وهؤلاء جميعاً نزحوا إلى أسبانيا ليعبروا عن حماستهم الصليبية في حرب المسلمين .

ثم إن روح التعصب الصليبية ظهرت بوضوح عقب استسلام غرناطة ، فعلى الرغم من أن شروط التسليم نصت على عدم الانتقام من المسلمين والإساءة إليهم ؛ إلا أن هذه الشروط كان من الصعب تنفيذها في عصر طفح بروح التعصب الديني وفي بلد عرف حكامه بالتطرف في ذلك التعصب . وهكذا أعقب سقوط غرناطة موجة من التعذيب الوحشي الذي حل بمن بقي في البلاد

من المسلمين . ولم تنته هذه الموجة إلا فى القرن السابع عشر بعد أن عذب من المسلمين من عذب وشرد من شرد وقتل من قتل ، حتى لقد ثبت أن جملة من نفى من مسلمى الأندلس عقب سقوط غرناطة بلغت ثلاثة ملايين نسمة(١) .

(١) للوقوف على التفصيلات ، انظر : سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٢٥٣ — ١٢٥٨ .

من قصص الحروب الصليبية

يتصور كثيرون الحركة الصليبية فى سلسلة حروب دموية متصلة الحلقات ، وقف فيها المسلمون والصليبيون وجهاً لوجه ، دون أن يعرفوا جميعاً لغة للتفاهم عدا لغة السيوف والحراب . والواقع أن هذه الصورة القاتمة للحركة الصليبية لا تعبر إلا عن وجه واحد فقط من أوجه تلك الحركة ، وهى لذلك أبعد ما تكون عن الحقيقة والتاريخ . فالحقيقة الثابتة التى لا يصح أن نغفل عنها عند دراسة الحركة الصليبية ، هى أن هذه الحركة - مهما تعددت أغراضها وتباينت دوافعها - كانت قبل كل شىء مجالا واسعاً التقى فيه الشرق العربى الإسلامى بالغرب الأوربى المسيحى ، وأن هذا اللقاء لم يكن لقاء حربياً فى ساحة الوغى فحسب ، بل كان أيضاً لقاء حضاريا على أوسع نطاق .

ويعجب من يتعمق قليلا فى مصادر الحروب الصليبية - العربية وغير العربية - عندما يلمس مدى قوة الروابط الاجتماعية التى كانت تنشأ بين المسلمين والصليبيين بالشام بين حين وآخر ؛ وكيف أن هذه الروابط بلغت أحيانا حد الصداقة والألفة . من

ذلك ما يرويه أسامة بن منقذ من أنه كان للملك فولك ـ ملك مملكة بيت المقدس الصليبية ـ فارس محتشم من الفرنجة وصل إلى الشام للحج ثم للعودة إلى بلاده . ولكن ذلك الفارس ساقته الصدف إلى الاتصال بأسامة ، فأنس به « وصار ملازمى يدعونى « أخى » وبيننا المودة والمعاشرة . فلما عزم على التوجه فى البحر إلى بلاده قال لى : يا أخى ، أنا سائر إلى بلادى ، وأريدك أن تنفذ معى ابنك ـ وكان ابنى معى وهو ابن أربع عشرة سنة ـ إلى بلادى يبصر الفرسان ويتعلم الفروسية » . ولكن أسامة اعتذر لصديقه الصليبي عن تلبية طلبه ، وودعه وداع الأحباب[1] .

بل لقد كان يحدث فى أشد أوقات القتال حرصاً أن يسأم المسلمون والصليبيون جميعاً طول القتال ، ويتبادلون الفكاهة والطرف ، إلى أن تنتهى فترة الاستجمام وعندئذ يعودون إلى القتال من جديد . من ذلك ما رواه المؤرخ أبو شامة من أنه عندما طال القتال بين المسلمين والصليبيين أمام عكا سنة ١١٩٠ « أنس البعض بالبعض بحيث أن الطائفتين «المسلمين والصليبيين»

(١) اسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٣٢ — نشر فيلب حتى

كانتا تتحدثان وتتركان القتال . وربما غنى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة ؛ ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة . وسئموا يوما فقالوا لى : كم يتقاتل الكبار وليس للصغار حظ ؛ نريد أن يصطرع صبيان : صبي منا وصبي منكم . فأخرج صبيان من البلد « المسلمين » إلى صبيين من الفرنج ، فوثب أحد الصبيين المسلمين على أحد الصبيين الكافرين ، فاحتضنه وضرب به الأرض وأخذه أسيرا ؛ فاشتراه منه بعض الفرنج بدينارين ، وقالوا : هو أسيرك حقاً ، فأخذ الدينارين وأطلقه[1] ! »

وهكذا لم تكن الحروب الصليبية مجرد معارك دموية مستمرة — كما يبدو من اسمها — وإنما تخللتها علاقات إنسانية عديدة . وقد اقتطفت من المراجع المعاصرة مجموعة من القصص لكل منها مغزى خاص يعبر عن جانب مهمل — رغم أهميته — من جوانب الحركة الصليبية .

١ — قلب كبير :

يفخر التاريخ العربى بصلاح الدين، بوصفه الشخصية البارزة فى تاريخ الحروب الصليبية ، والبطل الكبير الذى قضى عمره

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ؛ ج ٢ ص ١٤٣ .

فى الجهاد والعمل على طرد الدخلاء الغاصبين من أرض العروبة.

أما الأوربيون فهم عادة يفخرون بشخصية ريتشارد قلب الأسد ويصورونه فى صورة البطل الذى أتى من بلاده فى غرب أوربا ليقضى بضع سنوات فى أرض الشام ، حرص فيها على ترميم البناء الصليبي وتدعيمه ، وأظهر من الجلد والمثابرة فى محاربة المسلمين ما لم يظهره ملك آخر من ملوك الغرب الذين أسهموا فى الحركة الصليبية .

ولكن إذا كانت المراجع الأوربية تصور صلاح الدين وريتشارد فى صورة الندين المتعادلين اللذين وقف كل منهما للآخر دفاعا عن وجهة نظر معينة ؛ فإننا نلمس فارقا كبيراً بين الرجلين فى المثل والأخلاق . إن البطولة ليست مجرد الشجاعة فى القتال ، ولكن البطولة لها جانبها المعنوى الهام الذى يضفى على صاحبها هالة من الإعجاب والتقدير والمثالية . وبعبارة أخرى فإن البطولة تتطلب قبل كل شىء مستوى معيناً من الأخلاق ، وبخاصة فيما يتعلق بمعاملة الخصوم والأعداء .

وفى الوقت الذى نرى ريتشارد قلب الأسد يلجأ أكثر من مرة إلى الغدر والمراوغة ونقض العهود ونكث الأيمان والقسوة فى معاملة الأسرى من المسلمين ؛ إذا بصلاح الدين ــ على العكس ــ

يحرص على معاملة الصليبيين معاملة كريمة ؛ فلا يكاد يستولى على مدينة حتى يطلق سراح من فيها من نساء الصليبيين ، ويسمح لهن بالخروج معززات مكرمات إلى حيث يردن . من ذلك أن ريتشارد قلب الأسد تعهد بإطلاق سراح أسرى عكا من المسلمين وفقاً للاتفاقية المبرمة بين الطرفين سنة ١١٩١ ؛ ولكنه لم يكد يستولى على عكا حتى جمع من فيها من الأسرى « وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم ، وقتلوهم صبراً ، طعناً وضربا بالسيف » . وشتان بين هذا السلوك الهمجي الغادر ، وبين سلوك صلاح الدين عندما استولى على بيت المقدس من الصليبيين ، إذ أطلق سراح من فيها وسمح لهم بالخروج إلى المدن الصليبية القريبة سالمين . وعندما طالب بعض المتطرفين صلاح الدين بهدم كنيسة القيامة ومعاملة الصليبيين بمثل ما عاملوا به المسلمين عند استيلائهم على بيت المقدس سنة ١٠٩٩ ؛ نهرهم صلاح الدين وأمر باحترام الأماكن المقدسة المسيحية ، والتزام روح التسامح تجاه المسيحيين لأنه « عندما فتح أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه القدس فى صدر الإسلام ، أقرهم على هذا المكان ولم يأمر بهدم البنيان »

بل لقد حدث أن وقعت زوجة أرناط — الخصم اللدود لصلاح الدين — أسيرة فى قبضة المسلمين عندما استولى صلاح

الدين على بيت المقدس سنة ١١٨٧ ؛ فطلبت السماح لها بمغادرة المدينة ، كما طلبت إطلاق سراح ابنها ؛ فأكرمها السلطان وسمح لها بالسفر « وهى بنوابها محوطة وبرأيها منوطة » ؛ كما أطلق سراح ابنها بعد ذلك . وقد أدى هذا التساهل من جانب صلاح الدين تجاه الصليبيين ومبالغته فى إكرام خصومه إلى استثارة بعض معاصريه الذين رأوا فى هذه السياسة نوعا من عدم الحزم . من ذلك ما يقوله المؤرخ ابن الأثير معلقا على سياسة صلاح الدين ، عائبا عليه إفراطه فى التسامح والتساهل مع خصومه : « إن الحاكم أو الملك لا ينبغى أن يترك الحزم وإن ساعدته الأقدار ؛ فلأن يعجز حازما خير له من أن يظفر مفرطا مضيعا للحزم ! ! »[١] .

ولا أدل على كرم أخلاق صلاح الدين فى معاملة خصومه من أنه عندما علم بمرض خصمه ريتشارد قلب الأسد ، وبأنه فى حاجة إلى بعض الفاكهة والثلج ، أسرع بإرسال الكمثرى والخوخ وغيرها من الفواكه المطلوبة فضلا عن الثلج والدواء والشراب إلى خصمه ، الذى لم يكد يبل من مرضه حتى عاود الحرب ضد المسلمين وصلاح الدين .

(١) الكامل فى التاريخ ؛ حوادث سنة ٥٨٣ هـ .

وثمة قصة ذكرها القاضى بهاء الدين بن شداد — صديق صلاح الدين ورفيقه وكاتب سيرته — وتعطينا صورة واضحة عن أخلاق صلاح الدين وجميل شمائله . ذلك أنه حدث أثناء الصراع الناشب بين المسلمين والصليبيين حول عكا سنة ١١٩١ أن غنم بعض المسلمين طفلا رضيعاً عمره ثلاثة أشهر . « ولما فقدته أمه باتت مستغيثة بالويل والثبور طول الليل حتى وصل خبرها إلى ملوكهم « ملوك الصليبيين » فقالوا لها : إنه « أى صلاح الدين » رحيم القلب ، وقد أذنا لك فى الخروج ، فاخرجى واطلبيه منه ، فإنه يرده عليك . فخرجت تستغيث إلى اليزك « مقدمة الجيش » فأخبرتهم بواقعتها فأطلقوها وأنفذوها إلى السلطان « صلاح الدين » ؛ فلقيته وهو راكب؛ وأنا فى خدمته ، وفى خدمته خلق عظيم ، فبكت بكاء شديداً ومرغت وجهها فى التراب . فسأل عن قصتها فاخبروه ، فرق لها ودمعت عينه وأمر بإحضار الرضيع ، فوجدوه قد بيع فى السوق ، فارتده وأمر بدفع ثمنه إلى المشترى وأخذوه منه . ولم يزل « صلاح الدين » واقفا حتى أحضر الطفل وسلم إليها ؛ فأخذته وبكت بكاء شديدا ، وضمته إلى صدرها والناس ينظرون إليها ويبكون وأنا واقف فى جملتهم . فأرضعته ساعة ،

ثم أمر بها فحملت على فرس وألحقت بعسكرهم مع طفلها ! »

ويعلق ابن شداد على هذه القصة قائلا « فانظر إلى هذه الرحمة الشاملة لجنس البشرية . اللهم إنك خلقته رحيما فارحمه رحمة واسعة من عندك ياذا الجلال والإكرام ! »[1]

٢ — هل جزاء الإحسان إلا الإحسان :

على أن الخلق العربى الكريم لم يظهر فى تصرفات حكام المسلمين — مثل صلاح الدين — فحسب ، بل ظهر أيضاً فى تصرفات عامة الناس ؛ حتى اعترف كتاب الصليبيين أنفسهم بأن أجمل ما فى العرب أخلاقهم . والمعروف أن الاعتراف بالجميل ورد المعروف من الصفات الأصيلة التى يتحلى بها العرب . وثمة قصة طريفة رددتها المراجع الصليبية ، تشهد على مدى تقدير العرب للمعروف واعترافهم بالجميل ، وحرصهم على رد الحسنة بأحسن منها .

ذلك أنه إذا كان الصليبيون قد تظاهروا بأن حركتهم التوسعية الكبرى فى أواخر القرن الحادى عشر إنما استهدفت استرداد بيت المقدس من المسلمين وتأمين طريق الحج إلى

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ؛ ص ٢٥١ .

الأراضى المقدسة ، فإن سياستهم التى اتبعوها غداة استيلائهم على بيت المقدس سنة ١٠٩٩ سرعان ما كشفت النقاب عن أطماعهم الاستعمارية التوسعية فى الوطن العربى . فلم يكد يتم تتويج بلدوين الأول ملكا على مملكة بيت المقدس الصليبية ، حتى شرع سنة ١١٠١ فى الإغارة على البلاد العربية المجاورة . ويروى المؤرخ الصليبي وليم الصورى أن الملك بلدوين الأول هاجم فى ربيع سنة ١١٠١ قبيلة عربية كانت تعبر الأردن ، فقتل معظم رجالها وأسر النساء والأطفال واستولى على قدر ضخم من الغنائم . وكانت من جملة الأسرى زوجة أحد شيوخ القبيلة ، وهى حامل على وشك الوضع ؛ فلما علم الملك بلدوين بأمرها أطلق سراحها ومعها خادمتها وجملان وقدر من الزاد . ولم تلبث المرأة أن وضعت مولودها فى الطريق ، وعادت إلى زوجها لتروى له ما حدث لها .

ولم تمض مدة طويلة حتى أتيحت الفرصة لشيخ القبيلة ليعبر عن اعترافه بالجميل للملك الصليبي . ذلك أن توسع بلدوين الأول فى جنوب فلسطين واستيلائه على أرسوف وقيساريه ، حرك الدولة الفاطمية من سباتها العميق ، فلجأ الوزير الأفضل الفاطمى إلى إرسال حملتين إلى الشام سنة ١١٠١ وسنة ١١٠٢

لرد عادية الصليبيين . وإذا كان الملك بلدوين قد تمكن من إحراز انتصار سريع على الحملة الفاطمية الأولى ؛ فإن الفاطميين استطاعوا أن يوقعوا بالملك الصليبي فى الحملة الأخيرة ؛ فانتهزوا فرصة ابتعاده عن بقية قواته وباغتوه فيما بين يازور والرملة . وكان أن قتل معظم من كان مع الملك بلدوين من الصليبيين ، واضطر الملك نفسه إلى الفرار إلى الرملة والاحتماء بها فى ١٧ مايو سنة ١١٠٢ .

والمعروف أن الرملة مدينة صغيرة ضعيفة التحصين ، فقضى الملك بلدوين ليلته فيها وهو يحسب حسابا لوصول القوات الإسلامية بين لحظة وأخرى . وبينما بلدوين يقضى ليلته فى الرملة لا يغمض له جفن فى انتظار مصيره المحتوم ؛ إذا بشيخ العرب الذى كان بلدوين قد أكرم زوجته الشابة فى العام السابق يظهر فجأة أمام الملك الصليبي ليرد له الجميل . ذلك أن الشيخ العربى لم يكد يسمع بما حدث للملك الصليبي حتى تذكر معروفه ، وأدرك أن الملك بدخوله الرملة قد وقع فى المصيدة ، فصمم على مساعدته اعترافا بفضله . وكان أن فتح الملك بلدوين عينيه فى ظلام الليل ليجد أمامه الشيخ العربى يقول له « إن مثلك لا ينبغى أن يضام . سأساعدك على الفرار لكى

تحصل على فرصة أخرى تدافع بها عن نفسك ، بشرط أن تقاتل المسلمين كما يقاتل الشرفاء لا أن تعتدى على المسالمين كما يفعل اللصوص ! » .

وما هى إلا لحظة حتى ساعد الشيخ العربى الملك الصليبي فى خلع ملابسه ، وألبسه ملابس عربية تنكر فيها بلدوين ؛ وبذلك أمكنه الخروج إلى يافا والنجاة من الأسر ! .

٣ — مشروع مصاهرة بين المسلمين والصليبيين :

ومن الملاحظ أنه مع مضى الوقت أخذت حدة التعصب الصليبي تخف وتجنح نحو التسامح والاعتدال . فبينما أتى رجال الحملة الصليبية الأولى إلى الشرق فى أواخر القرن الحادى عشر وهم لا يعرفون لغة للتفاهم مع المسلمين إلا لغة السيف ؛ إذا بالوضع يتغير تدريجيا بحيث لم يصبح هناك مانع لدى الصليبيين فى نهاية القرن الثانى عشر من الارتباط برباط المصاهرة مع المسلمين .

ذلك أنه عندما طالت إقامة ريتشارد قلب الأسد فى الشرق ، وتعثرت المفاوضات بينه وبين المسلمين بسبب رغبة كل فريق فى التمسك ببيت المقدس ، اقترح ريتشارد ملك انجلترا حلا طريفا لحسم النزاع بين المسلمين والصليبيين بالشام ؛ هو أن

يتزوج الملك العادل أخو صلاح الدين من الأميرة جوانا أخت ريتشارد « وكانت عزيزة عليه كبيرة القدر » . وقد استهدف ريتشارد من وراء تحقيق ذلك المشروع أن يشترك الزوجان — العادل الذى يمثل الجانب الإسلامى وريتشارد الذى يمثل الجانب الصليبي — فى حكم فلسطين بما فيها بيت المقدس والمدن الساحلية ، وبذلك يحسم الخلاف بين المسلمين والصليبيين .

ومن الطريف أن الملك العادل رحب بتلك الفكرة ترحيبا كبيرا « ورأى فى ذلك عين الصواب » . وربما رأى العادل — وهو الرجل الثانى فى الدولة الأيوبية بعد أخيه صلاح الدين — فى ذلك الحل ضمانا لتوحيد المسلمين والصليبيين فى بلاد الشام تحت لواء واحد ، وإقرار الأمور فى تلك البلاد على أساس منا لمحبة والمودة المتبادلة بين الفريقين . على أن أغرب مافى هذه القصة هو أن صلاح الدين نفسه قبل الفكرة وأعلن ترحيبه بها فى صراحة تامة . ويبدو أن صلاح الدين أعلن قبوله لذلك المشروع لعلمه أن ملك انجلترا ليس جادا فى تنفيذ مشروعه « وأن هذا منه مكر وهزو » .

ومهما يكن من أمر فإن العقبة الكؤود فى سبيل تنفيذ ذلك المشروع لم تأت من جانب صلاح الدين أو ريتشارد ،

وإنما أتت من جانب العروس — الأميرة جوانا — التى أبت أن « تمكن مسلما من نفسها » . ويروى المؤرخ أبو شامة أن رجال الدين من الصليبيين دخلوا على الأميرة جوانا « وخوفوها واتهموها فى دينها وعنفوها وقالوا لها ما معناه : هذه فضيحة فظيعة وسبة شنيعة ، وقعلع على النصرانية وقطيعة ، وأنت عاصية للمسيح لا مطيعة ! فرجعت عن ذلك وما أجابت ». ولم يلبث أن اعتذر ريتشارد عن تنفيذ مشروع زواج العادل من جوانا ؛ وقال إن اخته لا تعترض على شخص العادل نفسه ، وإنما تشترط دخول العادل فى دينها ! وبذلك فشل المشروع[1] .

وبصرف النظر عما يبدو فى قصة مشروع زواج العادل من أخت ملك انجلترا من غرائب ، وما اعترضت ذلك المشروع من صعاب حالت دون تنفيذه ؛ فإن مجرد التفكير فى تنفيذ ذلك المشروع يدل على ما اعترى عصر الحروب الصليبية من تطور فى مشاعر المسلمين والمسيحيين على السواء . وشتان بين هذه العقلية التى فكر بها ريتشارد وصلاح الدين والعادل جميعا

---

(١) أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ٢ ص ١٩٣ ـ ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٣١٨ ، عماد الدين الكاتب : الفتح القسى ص ٣٠٩ .

فى أواخر القرن الثانى عشر ، وبين الروح التى أتى بها رجال الحملة الصليبية الأولى إلى الشام فى أواخر القرن الحادى عشر . والواقع أن هذا التفكير من جانب ريتشارد وتلك الاستجابة من جانب صلاح الدين والعادل ، إنما يدلان على التقارب السياسى والحضارى والفكرى بين المسلمين والصليبيين فى الشام بعد مرور قرن على بداية الحرب الصليبية بالشام ، كما يدلان على روح التسامح التى أخذت تبدو فى بعض تصرفات الفريقين . وحسبنا ما يرويه المؤرخ ابن واصل بعد ذلك مباشرة من اجتماع الملك العادل وريتشارد سويا « على طعام ومحادثة » ؛ وكيف أن ريتشارد طلب الاجتماع بصلاح الدين نفسه ؛ ولكن الملك العادل رفض طلبه وقال : « إن الملوك إذا اجتمعوا تقبح بينهم المخاصمة بعد ذلك ؛ وإذا انتظم أمر حسن الاجتماع »(١) .

٤ — معاشرة المسلمين تهذب الطباع :

وثمة حقيقة هامة اعترف بها جمهرة المؤرخين المعاصرين ، هى أن جموع الصليبيين الذين كانوا يفدون من الغرب اتصفوا

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ؛ ج ٢ ص ٣٧٤ .

دائماً بالخشونة والتعصب ، حتى إذا ما استقروا فى الشام وجاوروا المسلمين وعاشروهم ؛ أخذت طباعهم تعدل شيئاً فشيئاً . وقد أشار أسامة بن منقذ إلى هذه الحقيقة فقال : إن الصليبيين الذين عاشوا بالشام وجاوروا المسلمين تهذبت أخلاقهم وأنسوا بعشرة المسلمين ، أما « من هو قريب العهد بالبلاد الفرنجية فهو أجفى أخلاقا » .

ويدلل أسامة بن منقذ على وجهة نظره بقصة طريفة وقعت له ؛ فيقول : إنه اعتاد أن يصلى فى المسجد الأقصى — أثناء خضوع بيت المقدس للصليبيين — فلا يمنعه فرسان الداوية الذين كانوا يتخذون المسجد الأقصى مركزاً ومقاماً لهم . ويشير أسامة إلى الداوية فيقول إنهم أصدقاؤه ، وأنهم كانوا يخلون له المسجد الصغير ليصلى فيه . ولكن حدث ذات يوم أن دخل أسامة المسجد الأقصى للصلاة كعادته ، فلم يكد يقف ويكبر حتى هجم عليه أحد الفرنج ورد وجهه إلى الشرق وقال له « كذا صل ! » . ولكن بعض الداوية أبعدوا ذلك الفرنجى وعاد أسامة إلى الصلاة وعندما عاود الفرنجى فعلته أخرجه الداوية من المسجد ، واعتذروا لأسامة وقالوا له « هذا غريب وصل من بلاد الفرنج فى هذه الأيام ، وما رأى من يصلى إلى غير الشرق ! »[1]

(١) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ١٣٤ .

« إشارة إلى أن بيت المقدس تقع جهة الشرق بالنسبة لغرب أوربا » .

٥ — ضعف الغيرة الجنسية عند الأوربيين :

ومن الظواهر التي استرعت نظر العرب المعاصرين أن أولئك الصليبيين الوافدين من غرب أوربا ليست لديهم غيرة جنسية ، وأن الرجل منهم لا يغار على امرأته ولا يحرص على ألا ينفرد بها سواه. وكان من الطبيعي أن يدهش العرب لهذه الظاهرة ، وهم المعروفون بغيرتهم ونخوتهم وحرصهم دائما على مبادىء الشرف وقواعد الأخلاق . فأسامة بن منقذ يعيب على الصليبيين عموما أن ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة» ويدلل على ذلك بأن الرجل منهم يكون ماشيا هو وامرأته عندما يلقاه رجل آخر ، فيأخذ المرأة «ويعتزل بها ويتحدث معها ؛ والزوج واقف ناحية ينتظر فراغهما من الحديث. فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى!»

ويروى أسامة قصة طريفة يستدل بها على عدم غيرة الفرنج؛ فيقول: إن أحدهم دخل بيته فوجد رجلا مع امرأته في الفراش، فقال له « أي شيء أدخلك عند امرأتي ؟ » قال « كنت تعبان ودخلت أستريح ! » قال « والمرأة نائمة معك ؟ » قال « الفراش

لها . فهل كنت أقدر أمنعها من فراشها ؟ » فرد الزوج قائلا « وحق ديني إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت ! ! » .

ويعلق أسامة على موقف الزوج قائلا « فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته ! » [1] .

٦ — شجاعة المرأة العربية فى القتال :

وفى معركة الحرية والدفاع عن الوطن التى دارت على أرض العرب ضد الغزو الصليبي ، قامت المرأة العربية بدورها كاملا ، وهو دور البطولة والشجاعة والفداء الذى سجله لها التاريخ فى جميع العصور .

من ذلك مايرويه أسامة بن منقذ من أنه عندماهاجم الباطنية — الذين كانوا أحيانا أشد خطرا على المسلمين من الصليبيين أنفسهم — حصن شيزر ، ارتدت أم ليث الدولة يحيي زردية وخوذة ، وتسلحت بسيف وترس ، وشاركت فى القتال وأخذت تستحث الشبان على الصبر فى القتال . بل إن والدة أسامة بن منقذ زودت ابنتها الكبرى بالسلاح ، وأمرتها بالخروج للقتال ، وبذلك أظهرت نخوة « أشد من نخوات الرجال » على حد تعبير أسامة نفسه .

(١) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

ولم يقتصر أمر القتال على الشابات المسلمات فحسب ؛ بل يروى أسامة أن عجوزا من جوارى جده يقال لها فنون أخذت سيفا وخرجت إلى القتال وأبلت فيه . كذلك يروى أسامة بن منقذ كيف أن امرأة عربية من شيزر استطاعت أن تأسر ثلاثة من الصليبيين واحدا بعد آخر ، وكلما أسرت واحدا حبسته فى بيتها حتى اكتملوا ثلاثة ، وعندئذ استدعت جيرانها ليتسلموهم(١).

٧ — الفوارق الحضارية بين المسلمين والأوربيين :

وكانت الحروب الصليبية مجالا طيباً للاتصال الحضارى بين المسلمين والأوربيين الغربيين فى العصور الوسطى . وفى ذلك المجال ظهر بوضوح مدى تقدم الشرق والحضارة العربية الإسلامية ، ومدى تأخر الغرب والحضارة الأوربية .

وسرعان ما اكتشف المسلمون بالشام جهل أولئك الأوربيين الغزاة وانحطاط مستواهم الحضارى ، فعابوا عليهم جهلهم ، وحكوا عنهم القصص الذى يشهد على عظم الفارق الحضارى بينهم وبين العرب . من ذلك ما يرويه أسامة بن منقذ من أن صاحب حصن المنيطرة — وهو صليبي — كتب إلى بنى

(١) اسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ١٢٤ .

منقذ وهم جيرانه العرب فى حصن شيزر — يطلب منهم إرسال طبيب يداوى بعض مرضى الصليبيين ، فأرسلوا إليه طبيبا اسمه ثابت .

ولم تمض عشرة أيام على ذهاب الطبيب العربى حتى قفل راجعا من حيث أتى ، مما أثار دهشة أصحابه فقالوا له « ما أسرع ما داويت المرضى ! » فرد عليهم قائلا : « أحضروا عندى فارسا قد طلعت فى رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف . فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت ، وحميت المرأة ورطبت مزاجها . فجاءهم طبيب أفرنجى فقال لهم : هذا ما يعرف شيئا يداويهم . وقال للفارس أيما أحب إليك : تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين ؟ فقال أعيش برجل واحدة . قال : أحضروا لى فارساً قوياً وفأساً قاطعاً. فحضر الفارس والفأس وأنا حاضر فحط ساقه على قرمة خشب وقال : اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة اقطعها . فضربه — وأنا أراه — ضربة واحدة ما انقطعت . ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق ومات من ساعته. وأبصر المرأة وقال : هذه امرأة فى رأسها شيطان قد عشقها . احلقوا شعرها فحلقوه . وعادت تا كل من مآ كلهم ؛ الثوم

والخردل فزاد بها النشاف ، فقال : الشيطان قد دخل رأسها . فأخذ الموسى وشق رأسها صليبا وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح ، فماتت من وقتها .

قلت لهم : بقي لكم إلى حاجة ؟ قالوا : لا. فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه ! ! »[1] .

---

(١) اسامة بن منقذ . كتاب الاعتبار .

أثر الحروب الصليبية
في الشرق والغرب

استمرت الحركة الصليبية سنوات طويلة بين مد وجزر ، لم تقتصر فيها هجمات الصليبيين على بلاد الشام وحدها وإنما امتدت إلى معظم البلدان الإسلامية فى المشرق والمغرب ؛ فهاجم الصليبيون الوافدون من غرب أوربا العراق ومصر وآسيا الصغرى وتونس والمغرب والأندلس ؛ بل لقد وصلت هجمات الصليبيين إلى شواطئ الحجاز نفسه ، كما انتقل ميدان القتال بين العثمانيين والصليبيين إلى البلقان . وليس هناك من شك فى أن اتساع دائرة الحركة الصليبية على تلك الصورة كان له أثره الواضح فى ازدياد الصلات والروابط بين الشرق الإسلامى والغرب الأوربى ، الأمر الذى كانت له نتائج خطيرة فى تاريخ الشرق والغرب جميعاً .

ذلك أن الحركة الصليبية التى بدأت فى أواخر القرن الحادى عشر ، فتحت الباب أمام ألوف الأوربيين الذين وفدوا من غرب أوربا ليستقروا فى الشرق العربى . وكان لابد لأولئك الأغراب من اتصال دائم ببلادهم الأصلية ، فبدأت حركة ملاحية

ضخمة فى البحر المتوسط بين موانى الشرق وبلدان الغرب . ثم إن الملاحظ فى تاريخ الصليبيين بالشام أن كثيرا منهم كانوا لا يفضلون البقاء طويلا بالشام ، فاختاروا العودة إلى بلادهم بعد انتهاء المهمة الأساسية التى حضروا من أجلها ـ سواء كانت حرباً أو تجارة . وهؤلاء كانوا عند عودتهم إلى بلادهم يحكون الكثير عما رأوه وصادفوه فى الشرق ، فكانت هذه هى البداية الحقيقية لمعرفة الغرب الأوربى بالمشرق الإسلامى معرفة وثيقة واسعة ظلت تنمو وتزداد إلى أن بلغت ذروتها فى العصور الحديثة .

وإذا كانت غالبية كتب التاريخ فى القرن التاسع عشر ومطلع العشرين قد حرصت عند الكلام على حملة بونابرت على مصر والشام على أن تتخذ الحروب الصليبية مدخلا للموضوع ؛ فإن السبب فى ذلك إنما يرجع إلى أن الحروب الصليبية كانت أضخم محاولة فى العصور الوسطى لفتت أنظار الغرب الأوربى إلى الشرق العربى . ولا يخفى علينا أن الصليبيين عندما استقروا بالشام ، كانت غالبيتهم دائما من الفرنسيين كما كانت اللغة اللاتينية هى اللغة الغالبة بينهم . وهكذا دالت دولة الصليبيين فى الشرق الأدنى ، ولكن ذكريات الشام ومصر ولويس التاسع ظلت عالقة بأذهان

الفرنسيين بوجه خاص. ومن ذلك الوقت والفرنسيون يحرصون على بقاء صلتهم قوية بالشرق الأدنى والبلدان العربية، وبخاصة بلاد الشام، ويعتبرون هذه المنطقة دائرة نفوذ لهم، على الأقل فى الميدان الحضارى.

وثمة أثر آخر للحروب الصليبية فى بلدان الشرق الأدنى هو ازدياد النشاط التجارى وما ترتب على ذلك النشاط من ثروة تركت أثرها فى أحوال البلاد والعباد. ذلك أن التجار الأوربيين من إيطاليا ومرسيليا وأسبانيا استغلوا المراكز التى أقامها الصليبيون فى بلاد الشام فى القيام بنشاط تجارى واسع بين الشرق والغرب. وهكذا أخذت حاصلات الشرق من توابل ومنسوجات وأوان زجاجية وبخور... وغيرها، تتدفق على غرب أوربا عن طريق موانى مصر والشام. ثم جاءت غزوات المغول لتقفل بعض الطرق التجارية بين الشرق والغرب — مثل طريق الخليج الفارسى — الأمر الذى ركز الجزء الأكبر من تجارة الشرق الأقصى فى طريق البحر الأحمر ومصر بالذات. ولم تلبث أن اكتظت المدن والموانى المصرية فى عصر المماليك بالذات بالتجار الأوربيين، الذين عاشوا على هيئة جاليات، لكل

جالية قنصل يشرف على شئونها ومصالحها ، ولكل منها فندق ينزل فيه أفراد الجالية .

ولا شك فى أن هذا النشاط التجارى الواسع الذى جاء وليد الحركة الصليبية وارتبط بها ونما معها ترك أثراً عميقا وبخاصة فى أوضاع مصر والشام . وإن من يدرس الحياة الاجتماعية فى مصر بالذات فيما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر ، يجد كل صورة من صور المجتمع تنطق بوفرة الثروة والبذخ المطلق . فالعمارة المماليكية الفاخرة التى مازالت بقاياها من مساجد وقصور قائمة فى القاهرة ، والتحف النادرة من أوان ومشكاوات وصناديق ودكك مطعمة وغير مطعمة ، والحفلات العديدة الزاخرة بشتى ألوان الترف . . . كل ذلك يشهد بوفرة ثروة البلاد ، وهى الثروة المستقاة من التجارة الخارجية مع الغرب الأوربى بوجه خاص فى عصر الحروب الصليبية .

وأخيراً ، فإن الحروب الصليبية ساعدت ـ عن طريق مباشر أو غير مباشر ـ على حدوث بعض التطورات الداخلية فى بلدان الشرق الأدنى . ومن هذه التطورات ما هو اجتماعى مثل التأثر ببعض عادات الصليبيين وأوضاعهم ، ومنها ما هو إدارى مثل التوسع فى توريث الإقطاعات أسوة بما كان معمولا به فى الغرب

الأوربى . ومع هذا، فإن التأثيرات الاجتماعية والإدارية التى انتقلت من الصليبيين إلى العرب ظلت قليلة غير خطيرة؛ لأن كراهية المسلمين للصليبيين جعلتهم لا يتحمسون لمحاكاتهم والأخذ بنظمهم الاجتماعية والإدارية . أما فى الجانب السياسى فإن أثر الحروب الصليبية فى بلدان الشرق الأدنى جاء واضحاً قويا. ويكفى أن الحملة الصليبية الأولى جاءت إلى الشرق الأدنى العربى وبلاده مفككة لا تربط بينها وحدة سياسية؛ ولكن الإحساس بخطر الصليبيين أدى إلى الإيمان بالوحدة، وإلى ظهور دول — مثل دولة الأيوبيين ودولة المماليك — استمدت وجودها وبقاءها من فكرة الجهاد ودفع خطر الصليبيين عن الوطن العربى .

* * *

أما بالنسبة للغرب الأوربى ، فكان أثر الحروب الصليبية لا يقل أهمية ووضوحا . والمعروف أن الحروب الصليبية أحدثت هزة عنيفة فى الغرب الأوربى ظهرت آثارها بوضوح فى النواحى الاجتماعية والسياسية ، فأدت هذه الحروب إلى إضعاف النظام الإقطاعى وهو النظام الاجتماعى والاقتصادى والسياسى الذى أعطى المجتمع الأوربى الغربى طابعه فى ذلك العصر . ويبدو أثر الحروب الصليبية واضحاً كذلك فى الميدان الاقتصادى ؛ إذ ساعدت

تلك الحروب على إحداث تطور ملموس فى النظم المالية فى غرب أوربا . هذا إلى أن ازدياد النشاط التجارى بين الشرق والغرب على عصر الحروب الصليبية أدى إلى نتائج خطيرة فى غرب أوربا منها ازدياد نفوذ المدن وقوتها ، واتساع نطاق النشاط المصرفى ، وتحسين طرق التجارة وإنشاء طرق جديدة ، ونشاط الطرق البحرية . . .

على أن أهم ما تأثر به الغرب الأوربى فى عصر الحروب الصليبية كان فى ميدان الحضارة نتيجة للاتصال بالحضارة العربية الإسلامية . ذلك أن الحروب الصليبية أتاحت فرصة طيبة للاتصال الحضارى بين الغرب الأوربى والشرق العربى فى الوقت الذى كان غرب أوربا ما زال تائها فى ظلمة العصور الوسطى ، مما ساعد على انتقال كثير من مظاهر الحضارة العربية إلى غرب أوربا عن طريق الصليبيين .

والملاحظ أن الصليبيين أقبلوا على الحضارة العربية يرتشفون من معينها الفياض ، فنقلوا إلى بلادهم كثيراً من مظاهر الحضارة العربية التى صادفوها فى الوطن العربى . حقيقة إن إقامة الصليبيين بالشام كانت قلقة ومهددة دائما ، مما لم يسمح لهم بدراسة تراث الحضارة العربية الإسلامية فى كثير من العلوم ؛

ولكن ذلك لم يحل دون رؤية الصليبيين أشياء جديدة عملوا على محا كاتها و نقلها إلى بلادهم . من ذلك أن الغربيين شاهدوا نبات قصب السكر لأول مرة فى الشرق على عصر الحروب الصليبية ، فنقلوه إلى غرب أوربا ، كما حرصوا على تصدير السكر نفسه إلى الغرب ليحل محل عسل النحل الذى لم تعرف أوربا وسيلة غيره لتحلية الطعام وعمل الحلوى . ومثل ذلك يقال عن كثير من أنواع النبات والثمار والفواكه التى عرفها الأوربيون عن العرب على عصر الحروب الصليبية ونقلوها إلى بلادهم فى الغرب ؛ مثل السمسم والأرز والليمون والبطيخ والثوم .

كذلك عرف الأوربيون كثيراً من المصنوعات العربية وأعجبوا بها ونقلوها إلى بلادهم وحرصوا على استيرادها بانتظام من المصانع العربية فى الشرق ؛ سواء المصنوعات الزجاجية أو الخزفية أو المنسوجات أو الجلود أو الأوانى المعدنية وغيرها . ومثل ذلك يقال عن الفنون الحربية التى شاهد الأوربيون منها أنماطا غاية فى الرقى والتقدم فى البلدان العربية فى الشرق الأدنى ؛ فأخذ الأوربيون عن العرب فكرة جعل

مدخل الحصن ملتويا بحيث لا يرى الواقف على باب الحصن ما بداخله .

أما فى الجانب الاجتماعى ، فإن تأثر الصليبيين كان عظيما بما شاهدوه من نواحى الحضارة العربية . من ذلك ما يرويه أسامة بن منقذ من إعجاب الصليبيين بالحمامات العربية التى شاهدوا نماذج طيبة منها فى بلاد الشام ، مثل معرة النعمان . والمعروف أن وظيفة الحمام فى مجتمع العصور الوسطى العربى لم تقتصر على الاستحمام ، بل امتدت إلى الحلاقة وإزالة الشعر من الجسد ، وهى العملية التى قام بها الحلاق بالنسبة للرجال والبلانة بالنسبة للنساء . ولم يلبث أن أدى إعجاب الصليبيين بالحمامات العربية إلى ترددهم عليها طلبا لنظافة الجسد ، بل إن بعضهم كان لا يجد غضاضة فى أن يحضر زوجته للحلاق العربى فى الحمام ويطلب منه تحفيفها .

كذلك ترتب على طول إقامة الصليبيين بالشام ومجاورتهم للعرب ومعاشرتهم أحيانا ، تذوقهم الطعام العربى وإعجابهم به . وثمة قصة يرويها أسامة بن منقذ ، خلاصتها أن أحد أصحابه ذهب إلى مدينة أنطاكية الصليبية لإنجاز عمل ؛ فنزل فى بيت فارس من فرسان الصليبيين الأوائل الذين حضروا فى أوائل

الحروب الصليبية إلى الشام ؛ وطال به العمر حتى كبر ، فاعفى من الخدمة العسكرية وصار له ملك يتعيش منه . وعندما نزل الضيف العربى منزل الفارس الصليبي ، أحضر الأخير « مائدة حسنة وطعاما فى غاية النظافة والجودة » : ولكن الرجل العربى توقف عن الأكل وامتنع ، وعندئذ قال له الفارس « كل طيب النفس ، فأنا ما آكل من طعام الأفرنج ؛ ولى طباخات مصريات ما آكل إلا من طبيخهن . ولا يدخل دارى لحم خنزير »(١) .

* * *

وبعد ، فإن الحركة الصليبية لم تكن مجرد حروب . لقد كانت بالنسبة للوطن العربى تجربة خطيرة مليئة بالدروس والعظات . . . تجربة أثبتت للعرب جميعا فى المشرق والمغرب أن وحدتهم هى الملاذ الذى يلوذون به وقت الخطر ، والعاصم الذى يعصمهم من كيد الكائدين وشر المعتدين .

وكانت الحركة الصليبية بالنسبة للغرب الأوربى مغامرة فاشلة كلفته كثيرا من التضحيات فى الأرواح والأموال التى ذهبت

(١) اسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ؛ ١٣٦ .

عبثا لأن منطق العدوان لا يمكن أن ينتصر وسياسة البغى لا يمكن أن تنجح فى أرض عربية عرف أهلها بالحرص على حريتهم وحرية بلادهم .

وأخيرا فإن الحركة الصليبية كانت بالنسبة للعلاقات بين الشرق والغرب لقاء مكن الغرب الأوربى من النهوض من سباته الطويل والأخذ بأسباب حضارة زاهرة تعرف عليها فى أرض العرب .

المكتبة الثقافية
تحقق اشتراكية الثقافة

صدر منها :

١	— الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين	للأستاذ عباس محمود العقاد
٢	— الاشتراكية والشيوعية ...	للأستاذ علي ادم
٣	— الظاهر بيبرس فى القصص الشعبي	للدكتور عبد الحميد يونس
٤	— قصة التطور	للدكتور أنور عبد العليم
٥	— طب وسحر	للدكتور بول غليونجي
٦	— فجر القصة	للأستاذ يحيي حقي
٧	— الشرق الفنان	للدكتور زكى نجيب محمود
٨	— رمضان	للأستاذ حسن عبد الوهاب
٩	— اعلام الصحابة	للأستاذ محمد خالد
١٠	— الشرق والإسلام	للأستاذ عبد الرحمن صدقى

١١١ — الوان من الفن الشعبي ... ... الاستاذ محمد فهمي عبد اللطيف
١١٢ — الفطريات والحياة ... ... للدكتور عبد المحسن صالح
١١٣ — السد العالى « التنمية الاقتصادية » للدكتور يوسف ابو الحجاج
١١٤ — الشعر بين الجمود والتطور ... للأستاذ العوضى الوكيل
١١٥ — التفرقة العنصرية ... . للدكتور احمد سويلم العمرى
١١٦ — صراع مع الميكروب ... ... للدكتور محمد رشاد الطوبى
١١٧ — الإصلاح الزراعى والميثاق للدكتور محمد عبد المجيد مرعى
١١٨ — أضواء جديدة على الحروب الصليبية للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

الثمن قرشان

مطابع دار القـلم بالقاهرة